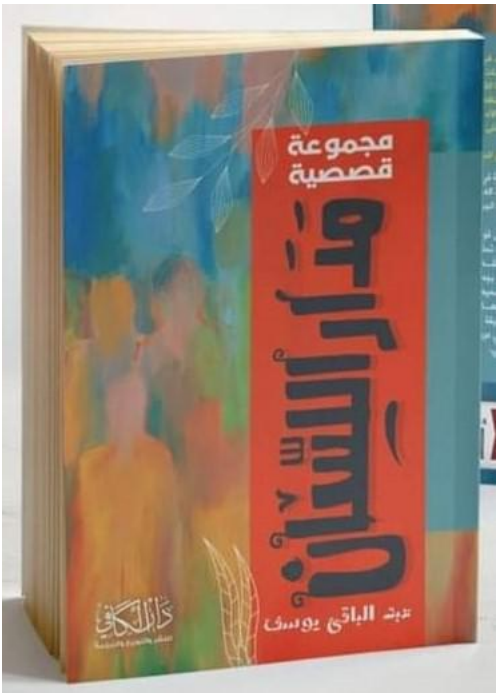

مدار اللّسان

عبد الباقي يوسف

مدار اللّسان

(قصص)

دار الكافي
للنشر والتوزيع والترجمة

© دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة، 2020
يمنع نسخ، اشتقاق أو إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية دون إذن خطي من الناشر.

213 552 388 169
@AlKafiPublishing
www.AlKafi-Publishing.com

دار الكافي
للنشر والتوزيع والترجمة

عنوان الكتاب	مدار اللّسان
مؤلف الكتاب	عبد الباقي يوسف
تصميم الغلاف	محمد الأمين محمدي
الطبعة الأولى	1442 هـ / 2020 م
ردمك	000-0000-000-00-0

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة

القسم الأول

رَجلانُ.. وكلب

مَالتْ الحافلةُ العَامَّةُ شَطرَ اليَمين، وأخذَتْ تَتمَهَّلُ حَتَّى توقَّفَتْ عَجَلاتُهَا عَلى الجَانب التَّرابيّ من أقْصَى يَمينِ الطَّريق العامّ، انفرَجَ بَابُ الرُّكاب، وَبَعدَ هُنيهَاتٍ نَزلَ منها رَجلٌ مُخدَّرُ السَّاقَين، وقَبلَ أنْ يستَوي عَلى الأرْض بشكل جَيِّد، تَحَرَّكتْ الحافلَةُ مُخَلِّفَةً نَحوَهُ دُخاناً داكنَ اللَّونِ حَادَّ الرَّائحَة، وكَأنَّهُ نَتيجَةُ زَيتٍ فَاسدٍ مَحرُوق.

أدَارَ ظَهْرَهُ إلى عَاصِفَةِ الدُّخَانِ الصَّغِيرَةِ وهُو يُكمِّمُ فَمَهُ بِراحَةِ كَفِّه اليُمنَى.

بَعدَ سَعلتَين، رَفَعَ نَظَرَهُ إلى اللاَّئحَة الصَّدئَة الَّتي تَحمْلُ اسمَ القَريَة الَّتي نَزَلَ قُبَالتَها، ثُمَّ مَا لَبثَ أنْ تَلمّسَ خطُوَاتَهُ مُسلِّماً جَسَدَهُ لطول الطَّريق الفَرعيِّ الرَّفيع المُؤدِّي إلى القَريَة الَّتي يَقصدُهَا حَتَّى يَقومَ بِوَاجب عِيادَة زَوج ابْنَة خَالَته الذي تَعرّضَ للَسعة أفْعَى وهو نَائمٌ في البَيت.

ألقى نَظرَةً فَاحصَةً إلى بيوت القَريَة المُتَنَاثرة، فَبَدَتْ أمَامَ نَاظرَيه بَعيدَةً بَعْضَ الشيَّء، خَاصَّةً وَأنَّهُ فِي سَاعَةِ العَصرِ، وَحرارَةِ شَهرِ تَموز، بَيدَ أنَّهُ

لَابدَّ من أنْ يمضيَ، ويُؤدّي هَذا الوَاجبَ، وَهُو الَّذي اعْتَادَ عَلى زِيارَاتٍ كَهَذِه، واعْتَادَ عَلى تَحمّلِ مَشقَّةِ المُواصلَاتِ العامَّة.

تَذَكّرَ أَنَّهُ منذُ خَمْسِ سَنوات أتى إلى هَذه القَريَة للمرَّة الأولَى عنْدَمَا تَزَوَّجَتْ ابنةُ خَالَته منْ شَاب فَلّاَح في هذه القَريَة، وَكَانَ قَدْ حَدَثَ ذَلكَ نَتيجَةَ مُبَاحثَات النّسوَة اللاَّتي سَعَيْنَ لهذَا الزَّواج مَن قبَل أهْل الشَّاب لأَنَّ إحدَى أخوَاته مُتَزوجَةٌ في الحَيِّ الَّذي تَقْطُنُهُ الفَتَاةُ، ومنذُ سَنتينِ أتَى للْمَرَّة الثَّانيَة عنْدَمَا أنْجَبَتْ ابنَةُ خَالَته صَبيّاً.

غَدَا يُدندنُ بأغنية وَيستَأنفُ خطواته في كَبد الطَّريق غَيرَ آبه بالمسَافَة الَّتي تَستَغرقُ نَحوَ نصف سَاعَة منَ المَسير عَلى الطَّريق التّرَابيّ.

في مَدخَل القَريَة كَانَ يَقبعُ كَلبٌ عَلى ذَيله تَحتَ فَيء بيت طينيّ مَهجور، وَما إنْ لَمَحَ الرَّجلَ يَتجاوَزُهُ دَاخلاً حُدُودَ القَريَة، حَتَّى وَثَبَ بشدّة وَهُو يُطْلقُ نُبَاحَاً مُتصَاعداً نَحوَ قَفا الرَّجُل، يَجري إليه ويَكادُ أنْ يَعضَّ سَاقَهُ منَ الخَلف، بيدَ أنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَلتَفتْ إلَيه طُرفَةَ عَين، ولَمْ يُبد أيَّ رَدّ فعلٍ مُواصلاً دنَدنَتَهُ وخطوَاتَهُ الواثقةَ المتّزنَةَ نحوَ قَلبِ القَريَة.

عندَئذ أخذَ نُبَاحُ الكَلب يَخفتُ رُويداً رويداً حَتَّى صَمَتَ تَماماً، وتَوقَّفَ عَلى قَوائمه، وَبعدَ لَحظَات من الوُقوف والنَّظَر إلى الرَّجُلِ الَّذي يَمضي، استَدارَ نَحوَ الخلف عَائداً بخَطُوات وئيدَة إلى مَوقعه.

بَعدَ قَليل شَقّ رَجلٌ آخرُ ذَاتَ الطَّريق، وَما إنْ أوصلَتْهُ قَدمَاهُ لتَخطّي حُدُود القَريَة حَتى أحسَّ بأنَّهُ سَقطَ بَينَ فكّي حَيوانٍ شرَس في تيه بيداء.

ارتعَدَتْ أوصَالُهُ وَغَدَا فَريْسةً لحالَة الذُّعر الَّتي احتَلَّتهُ في مُواجَهَة هُجُومِ الكَلبِ المُباغتِ عَليه، وَقُوة النُّباحِ التي تَنطَلقُ إليَه كَالشرَّار.

في تلكَ اللَّحظَة الحَاسمَة الَّتي اسْتَسلَمَ فيهَا الرَّجُلُ لهذَا الهَول، وَغَدا اللاَّشَعُورُ هُو الَّذي يَقُودُهُ، أَخَذَتْ خطواتُهُ تَسيرُ هَروَلةً به يُمنَةً ويُسرَةً، في حين ازدادَ الكلبُ عَزمَاً، وهوَ يدْنُو منهُ مُهدّداً إيَّاهُ بالعَضّ ويَكادُ أنْ يَلتَقطَهُ بفكَّيه مُضَاعفاً عَلَيه حَالَةَ الهَلَع.

وَقفَ الرَّجُلُ مُحاولاً الدّفَاعَ عَن نَفسه من خلاَل ركَلات بقَدمَيه يَصُدُّ بها فكَّي الكَلب، بيدَ أنَّهُ كَانَ يَزدَادُ نُباحاً وَشَرَاسَةً، والشرُّ يَطفُرُ من عَينَيه، امتَدّتْ كَفُّهُ المُرتَعشَةُ إلى حَجَر وقَذَفَتْهُ إلى وَجه الكَلب، لَكنَّهُ وَاصَلَ نُبَاحَهُ الشَّديدَ، مُقْترَباً منهُ وَمُبتَعداً عَنهُ مُوحياً أنَّهُ سَوفَ يَلتَهمُهُ بَعدَ لَحظَات.

ويَبدُو أنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَبقَ أمَامَهُ غير أن يلجَأ إلى الرَّكْض في مُحَاوَلَة أخيرَة للنَّجاة بنَفسه من بَراثن هَذا الكَلب الشرّير.

عندَئذ ضَاعَفَ الكَلبُ أيْضاً رَكضَهُ، هَرعَ بشدَّة، والكلبُ يُطلقُ نُباحَهُ المُتصَاعدَ خَلفَهُ كَأنَّهُ عَلى وَشك أنْ يَأكُلَهُ حَيَّاً وَهُوَ يُلامسُ ثيابَهُ بفكَّيه.

في تلكَ اللَّحظَة لمْ يدر كَيفَ وَقعَتْ عَيناهُ عَلى الرَّجُل الأوَّل الذي لايزَالُ يَسيرُ آمنَاً عَلى الطَّريق غَيرَ آبه بمَا يَقعُ خَلفَهُ عَلى بُعد خطوَات، فأصدرَ الرَّجُلُ المَذعُورُ صرُاخَاً علّهُ يَلتَفتُ إليه، ويُعينُهُ عَلى مُقاوَمَة الكَلب، لَكنَّهُ وَ بَعدَ عدَّة صرَخَات أدرَكَ أنَّهُ رجلٌ أطرَشٌ، فَتجاوَزَهُ والكَلبُ يركُضُ خَلفَهُ كَالسَّهم، عندئذ رَأى الرجُلُ الأطْرَشُ مَنظَرَ الكَلب الشرَّس وهُو يُطاردُ الرَّجُلَ المَذعورَ وَكَأنَّهُ يُلاحقُ طَريدَةً، فَأصَابَهُ ذُعرٌ شَديدٌ، وَاستَدارَ عَائداً نَحو الخَلف وهوُ يَهرعُ بكُلّ مَا أوتيتْ قَدمَاهُ من عَزم تَجَنُّباً من عَودَة الكَلب إليه.

في تلكَ اللَّحظَة الخَاطفَة يَبدُو أنَّهُ قد لَفتَ نَظَرَ الكَلب الَّذي تَركَ طَريدَتَهُ وَصوَّبَ قوائمَهُ إليه، فَركَضَ الرَّجلُ الأطرَشُ وَقدْ احتلَّهُ الهَلَعُ دُونَ أنْ يَسمَعَ للكَلْبَ صَوتَاً، ولَكنَّهُ كانَ بينَ فينة وأخرى يَستَديرُ لينظُرَ إلى

عَلامَات الشرَّ في عَينيه، وَهو يَجري خَلفَهُ وَيحَاول أنْ يُمسكَ به حَتَّى أوصلَهُ إلى الطَّريق العَامّ مُنهكَ القوى، عندئذ تَركَهُ الكَلبُ عَائداً إلى قَريته وهُو يَهزُّ ذَيلَهُ يُمنَةً ويُسرَةً وَكَأنَّهُ ألحَقَ الهَزيمَةَ بِلص.

وقَفَ الرَّجُلُ يَستَردُّ أنفَاسَهُ وكَأنَّهُ نَجا من وَقع بُركَان، جَلسَ تَحتَ لاَئحَة القَرية وتَلمّسَ شَيئَاً من الاسترخَاء بَين فكرة تدعُوهُ كَي يُكملَ الطَّرِيقَ إلى القَريَةِ مَرةً أخرَى، وَفكْرَة تَدعُوَهُ إلى العودَة للبيتِ آمنَاً.

بَعدَ أنْ هَدَأ رَوعُهُ قَليلاً، لَبثَ نَحوَ نصف سَاعة مُستَرَخياً يُفكّرُ في طَريقَة تُدخلُهُ القَريةَ مَرَّةً أخرى، وَهو يُكَيّلُ عبارَاتٍ قَاسية للرجُل الذي سَــلــّطَ عَليه الكَلبَ وَتَسبَّبَ بطرده من القَريَةَ بهذه الطَّرَيقَةَ المُهينَة بَعدَ أن دَخلَهَا وَكَانَ عَلى بُعد خطُوَاتٍ من بَيتِ ابْنَةَ خَالَتَه.

عندئذ قَفزَ إليهِ سؤَالٌ مُباغتٌ: إذنْ، أينَ كَانَ الكَلبُ عندَما دَخلْتُ القَريةَ؟!

غَدتْ شُفَّتُهُ السُّفلى كَعلْكَة لأسْنَانه، وارْتَفَعَتْ كَفُّهُ لِتَهبطَ بِقُوةٍ عَلى فَخْذه وهُو يَنهَضُ بعَجلَة.

نَفضَ ثيابَهُ من التُّراب، وعَلى الفَور دَبَّ بخطُوات وَاثقَة في صَدر طَريق القَريَةِ مَرَّةً أخرَى، وَغدَا يُدنْدنُ ذَاتَ الأغنيةِ مُتخَيِّلاً أنَّهُ يَشقُّ الطَّرِيقَ لأول مَرَّة.

لَحَهُ الكَلبُ مَرَّةً أخرى وهُو يَتجَاوَزُهُ دَاخلاً القَريَةَ، فَوثَبَ بعزم إليه وَهو يُطلقُ نُباحَاً مُتَصَاعداً، وَيدْنُو حَتى كَادَ يُلاصقُ سَاقَهُ من الخَلف.

لَبثَ الرَّجُلُ مَاضياً بذات الهُدوء يُدندنُ لَحنَ أغنيته دُونَ أنْ يَسمعَ شَيئاً، وَدونَ أنْ يَلتَفتَ إلَى الخَلَف رُغمَ أنَّهُ يَتحّسسُ مِنَ تَحت بِنطَالِه لَهَبَ الأنفاسِ التي تَنطَلِقُ مِن فَمِ الكَلبِ.

بَعدَ عدَّة خطُوات توَقَّفَ الكَلبُ عَن الرَّكض، وَعَن النُّباحِ، وَعَادَ إلى مَوضعه قَابِعَاً عَلى ذَيلِه تَاركَاً الرَّجُلَ يَشقُّ طَريقَهُ بِذاتِ الخُطواتِ الهَادِئَة إلى حَيثُ يَشاءُ مِن بُيوتِ القَريةِ.

مأدبــةُ غداءٍ

عندَمَا عَاد نَهار من عَمَله مَساءً، بُوغتَ بزوجَته تَقولُ لَهُ وهي مُستاءَةٌ: لَمْ يَكُنْ يَنقَصُنَا فِي هَذِهِ الأَزَمَةِ غير غدَاءِ الجَماعَة، وَكأَنَّنَا نَقعدُ عَلى بنك !

قَال نَهار بِصوته الَّذي غَلبَهُ إرهَاقُ العَمَل: خَيرٌ إنشَاءَ الله يَا حُرمَة؟

قَالتْ وَهيَ تَزمُّ شَفَتَيْهَا: قَبلَ أَنْ تَدْخُلَ بِسَاعَةٍ واحدةٍ يا سِيدي، طَلعتْ الستّ نوّارة من بَيتنَا.

– نوّارَة زوجةُ أَخي.. ثُمَّ بَعدَ لَحظَاتٍ وَكَأَنَّهُ فطنَ لأمرٍ، شرَعَ يَهزُّ رَأسَهُ عِدَّةَ هَزَّاتٍ نَحوَ الأَسفَل.

– أَخبرَتْني بِأَنَّ دَورَنَا فِي غَداءِ الجَماعَةِ هُو يَومُ الجُمعَةِ القَادم.

تجهّمَتْ مَلامحُ نَهار وراحَ يَخلَعُ سروالَ العتالَة الفَضفَاض والسُّترةَ ليبْقى بِقطعَتَي الثِّيابِ الدَّاخلِيَّتَين، ثُمَّ اتَّجَهَ بِحَرَكَةٍ آليَّةٍ إلى شَطَرِ مغسلَةِ الحوشِ الصَّغيرَة، ثم

مَدَّ يَدهُ إلى قطعَةِ الصَّابُون، وأَحنَى قامَتَهُ الطَّويلَةَ وَاضعاً رَأسَهُ تَحتَ صُنبُور الميَاه فَي حَوض المغسَلَة البَلاسْتيكيَّة، وراحَ يَسكُبُ المَاءَ البَاردَ بغزَارَةَ عَلَى رَأسه، وَبينَ كلِّ تَارةَ وأُخرَى كانَ يَفتَحُ عَينَيه لينظُرَ إلى حَجمِ الغُبارِ الَّذي يَنزلُ مِن شَعرِهِ مَعَ رَغوةِ الصَّابُونِ.

في تلكَ اللحظَات كَانَتْ زَوجَتُهُ /زهيرة/ تَدُسُّ يَدَهَا فِي جَيبِ سرِوالهِ وَتُخرِجُ المَبلغَ الذِي حَصَلَ عَليهِ مِن جَراءِ عَملِ اليومِ.

دسّتْ النُّقودَ فِي حَقيبَتِهَا وهِي تَقولُ: ثَلاثُمائة لَيرَةٍ.. نِعمةٌ كَرِيمةٌ.. بَارَكَ اللهُ فِي قُوتك يا نَهار.

ثُمَّ عَادَتْ وَتَمتَمَتْ لِنفْسِها: لَكنْ كَيفَ يمكِنُ أنْ نَتجَاوزَ هَذهِ الأزمَةَ؟

عِندئذٍ تَرامَى صَوتُ نَهار الأجشِّ إِلى سَمعِهَا: بِشكيرٌ يَا زُهيرَتِي.

هَرولَتْ إِليه حَاملَةً البشكيرَ وهُو يَنظُرُ إِلى المِياه الَّتي تَنزُّ من المغسَلَة المَكسُورَةِ وقَالَ: مُنذُ سَنةٍ وأنَا لا أستطِيعُ أنْ أشتَرِيَ مِغسلَةً بَدلاً عنَ هذِهِ.

قالت: خَدَمَتْنَا عَشرَ سَنواتٍ، لَو كَانَتْ أَصلِيَّةً لَخَدَمَتنَا ثَلاثِينَ سَنةً.

قَالَ: حُصُولُنَا عَلى مغسَلَة تَقليديَّة جَديدة بَدلاً عَن هَذه نعمةٌ كَرِيمَةٌ، سَتَستُرُنَا عَشرَ سَنواتٍ أُخرى، حِينَهَا يُفرجُهاً رَبُّكِ يا حُرمَةُ.

أَخذَ يُجفّفُ شَعرهُ بالبشكير، ويَتَّجِهُ بِخطواته صَوبَ الغُرفَة فِي حِين دَخلَتْ زَوجَتُهُ المَطبخَ لِتُسخّنَ الطَّعامَ الذي أَعدَّتْهُ وَتَغدَّتْ بِهِ مع أولادِهَا السّتةِ.

ارتَدى نَهارٌ جلبَابَهُ الأبيضَ الوَحيدَ، فَظَهرَتْ زَوجَتُهُ حَاملةً السُّفرَةَ الكَبِيرَةَ، فنَهضَ مَاسكاً السُّفرَةَ مِن يَدَيْهَا وَوضَعَهَا أَمامَهُ.

أَلقى نَظرَةً إِلى صَحنِ المجدَّرة، ثُمَّ إلى صَحنِ الفَاصولياء، ثُمَّ إلى صَحنِ البَصَلِ اليَابسِ وَكأسِ اللَّبنِ وشَرَعَ يَأكُلُ قَائلاً: الجوعُ كَافرٌ يَا زُهيرَةَ، اليوم ذَهبنا مع زَبونَينَ فَقطْ، حَمَلْنَا عَلى ظُهُورِنَا حَوالِي أَلفَ كِيسِ إسمنتٍ.

بَعد قَليل تَحلّقَ حَولهُ بَناتُهُ الخَمسُ، وابنُهُ الوحيدُ، احتضَنَ ابنَتَهُ الصُّغرى ذَاتَ العامينِ، وصَارَ يُمازِحُها نَاسياً تَعبَ النَّهارِ.

بعد قليل رَفعَتْ ابنتُهُ الكُبرى ذَات العشرِين سنةً السُّفرةَ، وأحْضرَتْ إبريقَ الشَّايِ.

قَال نَهار وهُو يَنظُرُ إلى السُّكرِ الأحمرِ اللَّونِ: هَذا السُّكرُ يُفسِدُ طَعمَ الشَّاي يا حُرمَة.

قَالت: هَذا الشَّهر لَم تُوزِّعْ المؤسسةُ بالبون غيرَ السُّكرِ الأحمَر، لَو كَانَ لَدينا نُقودٌ لاشترَينَا السُّكرَ الحُرَّ الأبيضَ للشَّاي، وَتركنَا الأحمرَ لِلمربى والحلويات.

كَانَ نهار يَعملُ عَتّالاً أمامَ أحد مَكاتب بَيعِ الإسمَنت، عندَمَا يَأتي زَبونٌ لشراء حَاجَته، يَقومُ نهار برفقَة العَاملَينَ الآخَرَينَ بحَمل الأكيَاس إلى السَّيارَة، ثُمَّ يَجلسُونَ عَلى الحُمولَة، وَيذهبُونَ مَع الزَّبونَ حَتَّى يُنزلُوا الأكياسَ في الموضعِ الذي يُريدُ، وَيتَقَاسَمُ الثَّلاثَةُ الأجرَ حسبَ عَددِ الأكيَاسِ الَّتي حَملوهَا كُلَّ يَومٍ.

استلقَى نَهار كَعادَتهِ مُبكراً في الفراشِ، في الوقتِ الذي يَبدَأُ فيهِ أولادُهُ بِالسَّهرِ أمامَ التّلفازِ.

دَخلَتْ عليهِ زوجتُه وقالَتْ: ألا يَعرفُونَ حَالَنَا، مِن أينَ نَأتِي بِالخرُوف لِنَجعلَهُ غداءً لَهُم؟!

قالَ: لَو كَانَ الدَّجاجُ وَافياً لَهانَ الأمْرُ، وَلكنَّ العادَةَ اللَّئيمةَ تَقضي تَقدِيمَ ذَبيحةٍ، فلو قَدَّمنَا لَهُم دَجاجاً لَغدَونَا أمثُولَةً بَينَ الأقربَاء.

وَمع الحَديث غَفا نَهار حَتَّى يَستيقظَ مُبكراً وَيتَّجهَ عَلى الفَورِ إلى عَمله لأنَّ تَأخُّرَهُ قد يَدفَعُ رفاقَهُ كَي يَستعِينُوا بِعتَّالٍ آخرَ غيره إذا كَانَ صَاحِبُ حُمولَةِ الإسمنْتِ مُستعجِلاً.

عندَ السّاعَة السَّادسَة صَباحاً وَصل نَهارٌ إلى مَكتَب بَيع مَواد البناء، وألقَى السَّلامَ عَلى رفاقه الَّذينَ كانُوا في انتظاره من أَجل حَمل ثلاثُمائَة كيس من الإسمنت، وأخَذَهَا إلى قرية تبعُدُ نَحو عَشرينَ كيلُو متراً.

عندمَا رآهُ العاملُ / شندي/ شَارداً قَالَ لهُ: مَا بكَ يا نهار؟

قال: وقعْتُ في أزمة لاَ أعرفُ كَيفَ أَخرجُ منهَا.

قال: خَيرٌ إن شاء الله يا صديقي.

قال: كعَادَتهم كُلَّ سنة جَاءَ أقربَائي من تركيا، سوفَ يَقضُونَ عَشرةَ أيّام عندَنَا، والعَادَةُ تَقضي أَنْ يُولمَ لَهُم كُلَّ يوم أحدُنَا، يَحلُّونَ ضُيوفاً كُلَّ يَوم في بيت أحد الأقرباء لتناول الغداء الذي يَكُونُ خَروفَاً، والله يَا (شندي) لا أَمْلُكُ ثَمنَ الخَرُوف، احترتُ في أمري، إذَا قَدَّمتُ لَهُم الدَّجَاجَ عَلى البرغُل، سَوفَ يَشعُرُ أقربَائي بأنَّني لَمْ أَقُمْ مَعَهُمْ بواجب الضّيافَة والتَّقدير، وقَد يُقاطعُونَني وينظُرونَ إليَّ نَظرةَ البُخل.

بَدأ العَتَّالونَ في حَمل الكَميَّة المَطلوبَة، وعندَمَا انتهُوا منها، صَعدُوا، وجلَسُوا على الأكياس في السَّيارَة، عندئذ قال (شندَي) لصديقه نهار: إذا أردتَ أَنْ تَخرُجَ منْ هذا الكَرب مَا عَليكَ إلاَّ إتباعُ مَا أقولُهُ لَكَ.

قال: تَصنَعُ مَعروفَاً يا (شندي).

قال: عديلي يَعملُ قَصّاباً، سَوفَ أُرسلُكَ إليه، وهُو سَيرَى لَكَ مَخرجَاً من هَذه الضَّائقَة.

انتَظرَ نهار بفارغ الصَّبر حَتَّى مضى يومَان على ذَلكَ، وفي صَبيحَة يَوم الجُمعَة، ذَهبَ إلى حَيثُ عَمَل عَديل (شندي). سَأَلَ عَنهُ حَتى رَآهُ، ألقَى عليه السّلامَ وعرّفَهُ بنفسه.

استقبَلَهُ الرَّجُلُ الذي كَانَ يَقفُ أمامَ بابِ المَحلّ، يُقطّعُ اللَّحمَ ويبيعُهُ للزَّبن بثيابه الَّتي تَناثَرَتْ عليهَا الدّماءُ. بَعدَ أَنْ فَرغَ من بعض الزَّبن، عَادَ واستقبَلَهُ بِتَرحابٍ قَائلاً: البَارِحة كَانَ عَديلي في بَيتِي وَشرَحَ لِي وَضعَكَ.

مدَّ عدَّة خطوات إلى داخل المَحلّ، وبعدَ لحظَات أحضرَ لَهُ كَأسَاً من الشَّاي وهُو يقولُ: تَفضلْ، خَيرٌ إنشاءَ الله، لا تشغَل بَالكَ، يُفرجُها الله عَلينَا وعَليكَ وعَلى أمةِ لا إلهَ إلاَّ الله أجمعين.

رشفَ نَهار الشَّاي بِسرعةٍ موحياً لِلرجُلِ بأنَّ عَليهِ العَجلةَ قَبلَ أنْ يَصلَ ضُيوفُهُ.

عِندها قال: كَمْ لَديكَ يا أخ نهار؟

قال: ألفُ ليرةٍ.

قال: ثَمنُ الخَروف ثَلاثَةُ آلاف لَيرَة، لَكنْ لاَ عليكَ سَوفَ أُعطيكَ بقيمة ألف ليرة لَحمَ الخروفَ، أقطّعهُ مَع العِظامِ بِقطعٍ صَغيرةٍ، وأُعطيكَ رَأسَ الخَروفِ مَجَّاناً.

عندما يَرى ضُيوفُكَ رأسَ الخَروفِ مَع اللَّحمِ يَظُنونَ بِأنَّك ذَبحتَ خَروفَاً.

انشرَحَ صَدرُ نَهار وقَبلَ بالفكرة، عندَهَا غَدا الرَّجُلُ يُقطّعُ اللَّحمَ إلى قطَعٍ صَغيرة تَصلُحُ لأنْ تكونَ ثريداً، وَبعدَ ذَلكَ دَسَّ رَأسَ خَروفٍ في الكِيسِ وأعْطَاهُ لِنهار.

أخذَ نهارٌ الكيسَ، وَسَارَ نَحو البيت، بَعدَ عدَّة خطوات تَوقَّفَ قَليلاً، ثُمَّ عادَ إلى حيثُ الجَزَّارُ وقَالَ لَهُ: كَمْ قيمةُ الرَّأسِ؟

قال: خمسون ليرةً.

أعطَاهُ المبلَغَ وَقالَ: أعطِني رَأساً آخرَ.

حَملَ كيسَ اللَّحمِ، وعَادَ إلى البيتِ مُنشرِحَ الصَّدرِ، وكَأنَّ الجزَّارَ أخرجَهُ للتوّ من قَعرِ جُبٍ.

عندمَا وَصلَ إلى البيت، استقبَلَتهُ زَوجتُهُ حَتى تَعرفَ مَا تَوصَّلَ إليه لأن الضُّيوفَ على وَشكِ القُدومِ، وهي لَم تُرتّبْ شَيئاً، وَلَمْ تُحرّك سَاكناً.

أدخلَ نهارٌ كيسَ اللَّحم إلى المطبخ، وَهي تَتبعُهُ، عندئذ شرَحَ لَها الفكرةَ، فَضحكَتْ المرأةُ بدهاء وهي تَقولُ: والله يا نهار، صَديقُكَ هَذا يَستحقُّ المكافَأةَ. وَشرعَتْ في ترتيبِ أمورِ الغداء.

بَعدَ نحو سَاعَة حَلَّ الضُّيوفُ، فَاستقبَلَهُم نَهار بترحَاب، وَحولَ موعد الغدَاء، قَدّمَ نَهار وجبَةَ الغدَاء لضيوفه في طَبقين كبيرين.

نَظرَ الأقرباءُ إلى بَعضهم البَعض دُونَ أن يَتوقَّعُوا هَذا الكَرمَ من قريبهمْ، وهُمَ يَعلمُون بأنَّهُ رَجلٌ عَتَّالٌ فَقيرُ الحال، ثم شرعُوا في تَناوُل الوَجبَة الشَّهيَّة، عندئذ علَّق أحدُهُم وهُو يَنظُرُ إلى الرَّأسَين قائلاً: سُبحانَ الله، أغنَى أقربَائِنَا ذَبحَ لنَا خَروفاً، وأفْقَرُهم ذَبَحَ لَنا خَروفَين.

الشيـخُ تُراب

لَمْ يُصدّقْ أحدٌ من أبناء وحَفدَة الشَّيخ تُراب أنَّهُ سيُصابُ في نهايَة عُمره بمرض غريب عَن أبناء قَريَته، بَل غَريب عَن البلاد كُلّها، وهو الذي بَلَغَ مئةً وَعشرَ سنوات من عُمره دُونَ أنْ يَطرُقَ بابَ عيادَة طَبيب، ودُونَ أنْ يَرى مَدينَةً غَير المدينَة التي تَتبعُ لها قَريتُهُ، وهُو يَستطيعُ أنْ يَعدَّ المَرَّات التي خَرجَ فيهَا إلى المدينة، بيدَ أنَّهُ لمْ يَبتْ ليلَةً واحدةً خلالَ كُلّ هذا العُمرَ في مكان آخرَ غير هذه القَريَة التي وُلدَ فيهَا، وَغدَتْ تَحملُ اسمَهُ بَعدَ أنْ قَامَ بفلاحَة أراضيهَا، وبنَاء بيوت فيها.

كَانَتْ أرضاً تَحتوي عَلى بَيت واحد دُونَ اسم عندما ولد تُراب، وفيما بَعد بَدأتْ تَكبرُ القريَةُ على يدَيه وتَحملُ اسمَهُ.

فَقطْ منذُ أسبوع اضطرَّ الشّيخُ تُراب للذَّهاب إلى عيادَة أحد الأطبّاء في المدينة عندمَا اشتدَّتْ عليه أعراضُ المرَض، وبَدأتْ الحُمّى تَنالُ منهُ.

أوقَفَ أبناؤهُ وأحفادُهُ سيّارَةً أمَامَ البَاب وحمَلُوهُ إليها دُون رغبة منهُ.

بَعد الكشف عليه من قبل الطَّبيب، وإجراء التَّحاليل، قَالَ لهُ الطَّبيبُ بحضور أولادهِ وأحفَادِه: أنْتَ مُصابٌ بمرض أنفلونزا الخنازير يا شيخ تُراب.

عبرّ الشّيخُ عن دَهشته من سَماع اسم المَرض الذي يَسمَعُ به لأول مرَّة

وقال: عَافاكَ اللهُ يا حكيم، إيه يعني أنفلونزا الخنازير؟!

قال الطبيب دَهشاً هو الآخرُ من إصابَة هذا الرَّجُل العجُوز بهذا الدَّاء الجديد على العالَم، وهُو في قرية شبه مُنعزلَة: هذا مَرضٌ يصيبُ الخنازيرَ وتنتقلُ عَدواهُ إلى الإنسان!

ضَحكَ الشّيخُ تُراب وهو يَهزُّ رأسَهُ قائلاً: تعرفُ يَا حكيم بأنَّني ما شفتُ الخنازيرَ في حياتي، ولا أعرفُ شكلَها، ثُم أردَفَ بذات الدَّهشة والاستياء من إصابَته بمرض كهذا: إيه جَاب الخنازير - والعياذُ بالله - عَلينَا يا حَكيم؟!

قال الطبيبُ وهو يطَبطِبُ عَلى كتفه: عَافَاكَ اللهُ يا شيخ تُراب.

عندئذ حملَهُ الأولادُ وأعَادُوهُ إلى البيت ثانيةً بَعدَ أنْ تَلقَّوا إنذاراً شديدَ اللَّهجَة من الطبيب كَي يتَجنبّوا الاقترَابَ منهُ، وأن يستعينُوا جميعاً بالكمّامات، وأنْ يبقَى وَحدَهُ في غُرفَة، وإلاّ سَوفَ تنتقلُ العدوى إلى كُلّ سُكّان القرية، لأنَّ هذا المَرضَ سريعُ الانتقَال بشكل عَجيب.

في المسَاء اجتَمعَ الأبنَاءُ والحفَدَةُ في بيت الشَّيخ تراب، وتَبادَلُوا أطرَافَ الحَديث عن سَبب إصابته بهذا المرض الغَريب الَّذي يبعَثُ عَلى الاستيَاء لُمجرَّد ذكر اسمه.

قال أحدُهم: لماذَا تَستغربونَ يَا أخوتي من أنْ نُصابَ بهذا المرض الذي جاءَنَا على جَناح السرُّعَة من الغرب، نَحنُ نأكُلُ رُزَّهُم، نَشرَبُ حلَيبَهُم، وَشايَهُم، وقَهوتَهُم، نُدخّنُ سَجائرَهُم، نَلبَسُ ثيابَهُم، نَرتَدي أحذيتَهُم، نتعَامَلُ بعُملاتهم.

قال آخرُ: الشّيخُ لمْ يَخرُج من القريَة، لَكنَّهُ كلَّ يومٍ يلتقِي بالخارجينَ منهَا والداخلينَ إليهَا.

عندئذ نَهضَ أحَدُ الحَفَدة واتَّجهَ نَحو الطَّريق العامّ الذي وُضعَتْ عَليه اللَّوحَةُ الَّتي تَحملُ اسمَ القَريَة، أخرَجَ قَلمَ التَّخطيط الَّذي كَانَ يَحملُهُ بحوزَته، ورَاحَ يَكتبُ على اللَّوحَة. بَعد أنْ فَرغَ مِن الكتَابَة، ابتعَدَ عَن اللَّوحَةِ قَليلاً وصَارَ يقرأ مِن بعيدٍ: قَريةُ الشَّيخِ تُراب العالميَّةُ.

المقعَـــــدُ

لمْ أكُنْ أعلَمُ أنَّ نظرات ذَاكَ الشَّاب سَوفَ تَترُكُ كُلَّ ذاكَ الأثر عليّ وعلى الرُّكاب، وَنحنُ نَنظُرُ إليهِ كَيفَ يَرمُقنَا بِنظراته الحَانقة عندَمَا نَزَلَ منِ البَاصِ فِي المَوقِف الذي طَلَبَ أنْ يَنزلَ فيهِ.

كَانَ ذَلكَ عندمَا أردْتُ العَودَةَ منَ السُّوق إلى البيت، واتَّجهتُ إلى الموقف لأنضَمَّ إلى بَعضِ النَّاس الذينَ يَنتظَرُونَ بَاصَات النَّقل الدَّاخليّ. بعدَ وقُوفِي بَخمس دَقائقَ، وقَفَ بَاصٌ يَحملُ اسمَ الحَيّ الَذي أُرَيدُ بِمُحاذاةِ الموقف بَعد أنْ أشرَّتُ لَهُ بيدي لِلوقُوف.

صَعدتُ إلى البَاص المُزدَحم بالرُّكاب، أسندْتُ قَامتي على مَمسَك أحد المقَاعد لأن البَاصَ يمشي في حَيَّ شعبيَّ وسَط المُنعطَفات الَّتي وضَعَتْهَا البلديَّةُ حَتى يَضطَرَّ سَائقُو السَّيارات إلى التَّمهل في سِياقَتِهمْ بِسببِ وجودِ الأَطفَالِ، إضَافَةً إلى وُجودِ بَعضِ المدارِس.

كانَت ثَمَّة نسوَةٌ وَاقفاتٌ في البَاص دُونَ أنْ يجدْنَ المَقاعدَ للجُلوس عَليها، وفجْأَةً لَفتَ نَظرَي وجُودُ شَابَ في مُقتَبل العُمر يَجلُسُ إلَى جَانبِ امرَأة تُصوّبُ الأَنظارَ إليه لأنَّهُ يَنظُرُ إلىَ النّسوَةَ الواقفاتِ دُونَ أنْ يَنهضَ لِيُفسِحَ لِإحداهُنَّ مَقعَداً للجُلُوسِ.

تَناهَى إلى سَمعِي صَوتُ امرأةٍ تَقفُ وَسطَ زَحمةِ الرّجالِ بِالقُربِ مِنّي: جِيلٌ بِلا أَحاسِيس.

قالَتْ امرأةٌ أُخرَى يبدُو أنَّها عَادَتْ للتوّ مِن وظِيفتِهَا: لَولاَ الضرُورةُ مَا صَعدْنَا البَاصَ لنقِفَ فِي زحمةِ الرّجالِ.

قالَت امرأةٌ أخرى بصوت أسمَعَ الشَّابَ الجَالسَ: مَاذا نَقُولُ لِشابٍ يَنظُرُ إلى النّساءِ الواقفَاتِ دونَ أنْ يَشعُرَ بِالنَّخوَة.

هَذه العبَارَةُ التي ورَدتْ بصوت مُرتفع وأسمَعَتْ أغلَبَ رُكَّاب الباص شَجَّعتْ امرَأةً أُخرى لتُهمهمَ: ألَم يَسبقْ لَهُ أنْ صَعدَ مَع إحدَى قَريبَاته، ورَأى أحَداً ينهَضُ لِتجْلسَ فِي مقعده.

احمرّتْ وجنَتا الشَّابِ دُونَ أنْ يَفهَ بحرف، كانَ الوقتُ بعدَ الظّهر، والطَّقسُ شديدُ الحرارةِ فِي البَاصِ غيرِ المكيّفِ، فصَار العرقُ يَتصبّبُ مِن جبهته بغزارةٍ.

عَلا صوتُ رجل يقفُ بجانبه: والله لولا العيبُ لَسحبتُهُ من كَتفه بالقوَّة، حتَّى تَجلسَ حرمةٌ في المَقعد، ويَتَعلَّمَ كيفَ يحترمُ النّساءَ. نظَرَ الشَّابُ إلى الرّجلِ وقد احتقَنَ وجهُه، بيدَ أنّهُ لبثَ مُحافظاً على صَمته.

حينَ جاءَ صوتُ السَّائق مُنادياً النَّازلِينَ في موقف انطلاق الباصات العامِلَة على خُطوط المَناطِقِ، خَرَجَ صوتٌ أجشٌ مِنَ الشَّاب: مِن فضلِكَ أنزلِنَي فِي الموقفِ.

عندَما وقفَ الباصُ، اتَّجهتْ الأنظارُ كُلّها إلى هذا الشَّاب الذي لمْ تؤثّر عَليه كُلُّ تلكَ العبارات المُباشرَة، وغيرُ المباشرة. لبثَ في مقعَده دُونَ حراكٍ، فِي تلكَ الأثناء تقدّمَ شَخصٌ منهُ، فَعلمنا بِأنّه مُرافقُهُ.

حَملَهُ الرّجلُ على ظَهره، ونَزلَ به بتُؤدة استغرقَتْ نَحو خَمس دقائقَ، والشَّابُ يَنظُرُ إلى وجُوه الرُّكاب الذينَ تحدَّثُوا عنهُ خلالَ الطَّرِيقِ، وهُو يُغالِبُ الدُّموعَ التي بَدأتْ تَنهمرُ مِن عينَيه.

القسم الثاني

شـفق خيّـو

لم أكُنْ أصدّقُ ما رأيتُ لولا أنْ شدّدَ صديقي على الحروف قائلاً للمرَّة الثَّانيةِ وهو يصوِّبُ نظرَهُ إلى رجلٍ عجوزٍ جالسٍ على قارِعةِ رَصيفٍ وسَطَ سوقِ المدينةِ: هذا شفَقُ خيّو.

الرجُلُ الذي يعرفُهُ كُلُّ سُكَّان المدينَة والقرى والمناطق والأحياء التَّابعَة لهَا سواءً رأوهُ وجهاً لوجه، أوَ سَمعُوا به حتَّى بَاتَتْ المدينةُ كُلُّها تذكّرُ باسمهِ لأنَّ لا أحداً يدخُلُها ويَخرجُ منهَا دونَ أنْ يسمَعَ هذا الاسمَ.

منذُ سنوات الطُّفولة وأنا أسمَعُ اسمَهُ بشكل يوميّ، لَكنْ لمْ يسبُقْ لِي أن رأيتُهُ، إنَّها المرةُ الأولَى الَّتي تقعُ فيها عينايَ على سَحنات وجهِه.

دنوتُ منهُ بلهفة تسبقُني نظراتي إلى ملامحِ هذا الشَّخصِ المُميّز الذي بَاتَ يشكّلُ جُزءاً منَ ذاكرةِ مدينتي.

توقفْتُ مع صديقي على بُعد عدّة خطوات منهُ، وغدوتُ أتأمَّلُ وجهَهُ الأصفرَ المليءَ بالتّجاعيد، حاجبيه الكَثيفين بشَعرٍ خشن أبيض، وقدْ تحوّلَ البياضُ فيهمَا إلى لَونٍ بُنيّ فاتحٍ بِسببِ تراكُمِ الغُبارِ كما الحَالُ بالنّسبةِ لشعرِ رأسِه.

كانَ يرتدي جلباباً عَتيقاً بُنيّ اللَّون مملوءً ببقعِ زيوت، وفُقاعات غريبَة، مُخيّط من كُمّه بخيط خَشن أبيض اللَّون بطريقة عشوائيَّة، يبدُو أنَّهُ ارتداهُ دونَ ثياب داخليَّة عَلى جَسده الهزيل الذي يبدُو للعيان كَطائر اللَّقلق خاصَّةً عندمَا يُحرّكُ يَديْه الرَّاجفَتين أثناءَ الحديث، يرتديه دونَ أيَّ ثياب واقية أخرَى من البردِ رُغمَ بُرودَة الطّقس.

يتحدّثُ بلهجَة جدّية وبصوت أجشّ لا يكادُ يخرجُ من حُنجرته إلى صَبيّ يشاركُهُ الجلوسَ على الرّصيف ذاته، يلتمسَان دفءَ شمس شَباط الصّباحية، وبينَ عبارة وأخرى يستَسلمُ وهو مَنهكٌ القوة لنوبةَ سُعال حادّة يظنُّ النَّاظرُ إليه بأنَّهُ سوفَ يقضي بها.

اكتشفْتُ مع النَّظر العميق إليه أنَّ رأسَهُ يهتزُّ بشكل دائم سواءَ أكانَ يتحدّثُ، أو كان صَامتاً، يوحي هذَا الاهتزازُ إلى النَّاظرِ إليه للوهلَة الأولى بأنَّهُ يتحسرٌ على شيَء ثمينِ قد فَاتَهُ.

يُنصتُ إليه الصَّبيُّ المُقبلُ على الحياة للتّو، والذي يرتدي بنطالاً من الجينزِ معَ كنزَة صوف منفوشة تبدُو من البالَة، وتَظهرُ على ذَقنه بداياتُ الزغبِ.

يُنصتُ بعنايَة فائقة إلى الحديث المركّز الذي يوجّهُهُ إليه شفق خيّو كما لو أنَّهُ يَعظُهُ، فيقُولُ الصبيُّ بدهشَــة: أررّرَّ ك.

امتدّتْ يدُ الصبيّ خلسَةً إلى جرابه، وهو في حَالة الإنصات التَّامّ، سحَبَ علبةَ سجائر، أخرَجَ منها اثنتين، وَضَعهُمَا مَعاً في فَمه وأشَعلَهُما بثقاب كبريت، وعندَما تَأكّدَ من إشعالَهمَا بشكل جيد، أخرَجَ واحدةً من فمه ودسَّهَا بينَ شفتَي شفقَ خيّو، وَهُو ما يزالُ يُنصتُ وشفق خيّو يُواصلُ حديثَهُ دونَ انقطَاعٍ.

بعدَ قليل وكانَتْ سَاعتي تُشيرُ إلى التَّاسعة والثلث، تَوقّفَ بجانبهمَا رجلٌ أصلْع يرتدي معطَفاً طَويلاً أسودَ اللونِ يَحملُ كيَساً شفافاً منْ خُبزِ التَّنور، وبَدَا أنَّهُ على معرفَةٍ جيّدةٍ بهما.

قال: كيفَ حالُك هذا الصَّباح شفق خيّو؟

رَفَع نظرَهُ قائلاً: عَايشْ من قلة الموت يا معلم صبحي.

قالَ متَّجهاً بكلامه إلى الصبيّ: وأنتَ يا شبلي؟

قال الصبيُّ: حالي مثلُ حالِ معلّمي.

قال: شفق خيّو أمانة في رقبتكَ يا شبلي.

أجاب الصبيُّ: إنهُ في عينَي يا معلّم صبحي.

أخرجَ الرجُلُ رغيفين، ومدّهُما إلى يدِ شفق خيّو مُتمتماً: خبزٌ حارٌ.

تناولَهُما شفق قائلاً: كثـّرَ اللهُ من أمثالكَ.

عندئذ ألقى شَخصٌ السلامَ على صديقي، فانتبهْتُ إلى أنَّني نَسيتُ وجودَهُ بجانبي.

قلتُ مُحاولاً إشراكَهُ معي في النَّظرِ: كيفَ عرفْتَ بأنَّهُ شفق خيّو؟

قال: منذُ سنتين ذهبْتُ إلى المشفى الحكوميّ لعيادة أحد أقربائي المرضى، رأيتُ شفق خيّو مُمدداً على سريرٍ في الغُرفةِ ذاتها، هُناكَ تعرّفتُ عليهِ عن قُربٍ ورأيتُهُ أولَ مرة.

كان الناسُ يدخُلون الغرفةَ بشكلِ أفواجٍ ليسَ لزيارَته، بل لرُؤيته وهم يشيرُونَ إلي: هذا شفق خيّو.

أذكرُ كانت ردهةُ المشفى تغوصُ بالنَّاسِ الذينَ يريدُونَ الدُّخولَ لإلقاءِ نظرةٍ على شفق خيّو، وكأنَّهُ ممثلٌ سينما مشهورٍ.

كان يدخلُ عليه الأطباءُ والطبيباتُ، المُخدرُونَ والمُخدّرات، الممرضونَ والممرضات، وغالبيةَ زوّار المرضى من جميعِ الطَّوابق، حتّى مديرُ المشفى جاءَ يتحدّثُ معهُ ويُمازِحُهُ قائلاً: نوّرتَ مشفانَا بدخولِكَ فيها يا شفق خيّو يا نجمَ مدينتنا.

كانَ حديثَ السَّاعةِ في المشفى كمَا لو أنَّهُ مسؤولٌ كبيرٌ.

ثمَّ صوّبَ صديقي نظَرَهُ إلى الصَّبيّ مردفاً: كانَ هذا الصبيُّ يجلسُ على كُرسي بجانبه. سمعتُ بعضَ النَّاسِ يقولُونَ بأنَّهُ صبيٌّ مشرّدٌ، تركَ قريتَهُ والتحقَ بهَ قَائلاً بأنَّهُ يُريدُ أنْ يصبحَ خليفتَهُ، يُريدُ أنَ يرثَ تاريخَهُ، وعندمَا كَانَ يسأَلُهُ أحدُ الأطبَّاءِ عن سببِ وجودِهِ معهُ؟

كان يقولُ: إنَّهُ أبي.

وكان شفق خيّو يقول: إنَّهُ ابني.

قطعَ حديثَنا وقوفُ رجلٍ بجانبِ شفق خيّو، تحدّث قليلاً مَعهُ، ثمَّ أخرجَ ورقةً نقديَّةً ومدّها إليهِ.

أخذَها شفق خيّو، وعندَما انصرَفَ الرَّجُلُ أعطَاهَا للصبيّ الذي نهَضَ حالاً واختفَى نحو ربعِ ساعة ليعودَ حاملاً كيساً صغيراً يحتوي على قليلٍ من الحَلاوة، وشرعَا على الفورِ بتناولِ طَعامِ الإفطارِ.

قال صديقي: لِنذهبْ، تأخّرَ الوقتُ.

قلت: اذهبْ أنتَ، سوفَ أبقى هُنا بعضَ الوقتِ، لمْ أشبَعْ من رُؤيةِ شفق خيّو بعدْ.

ودّعني صديقي وبقيتُ على الرّصيف المُقابل لشفق خيّو، كانَتْ لديَّ رغبةٌ في البَقاء أكثَر، وأنا أتعرَّفُ على هذا الشَّخصَ عن قُربٍ أسمعُ صوتَهُ، أنظُرُ في مَلامحه، أتأمَّلُ كُلَّ حركةٍ تبدُرُ منهُ.

بدَا أمامي اكتشَافاً معرفيّاً جديداً، بَدا شَخصاً سحريّاً قَدمَ من العَالَمِ القديمِ، ولا ينتَمي إلى هؤلاءِ النَّاسِ الذينَ يَمضونَ في الشّارعِ.

إنَّهُ الشَّخصُ الذي يتردَّدُ اسمُهُ في كُلّ حيّ من أحياء المدينَة أكثر من أيّ اسم آخر، لا يمُرُّ يومٌ دونَ أن يَذكرَهُ النَّاسُ مئاتَ المرَّاتَ في أماكَنَ ومجالسَ مختلفة، ويُحكى أنَّ بعضَ أبناء المدينة الذينَ يعملُونَ في مُدن أخرى، سرّبُوا اسمَهُ إليها، فغَدا يُذكَرُ فيَ تلكَ المُدنِ أيضاً حتَّى بدا للبعضِ بأنَّهُ شخصٌ ينتمي إلى عالَم الأساطير، أو أنَّهُ من صُنع الخيالِ الشَّعبيّ القَديمِ، وقدْ تسرّبَ مع التّراثِ الشفويّ على ألسنة النَّاسِ.

لكنَّ الحقيقةَ أنَّهُ من أبناء هذه المدينة، يعيشُ في أحد أحيائهَا الشَّعبيَّة غير المنظَّمة، وهو من الأحياءَ المُدقَعة التي وجدَ الناسُ فيها مكَاناً يأوونَ إليه مع أولادهم، يَقيهم صقيعَ الشّتاء، وشمسَ الصيف، فقامُوا بوضع أيديهم على مسَاحات من الأراضي الشَّاغرة المُستملَكة للبلَديَّة، شادُوا فيهَا بيُوتاً طينيَّةً بشكل عشوائيّ حتَّى تشكّلَ حيٌّ أطلقُوا عليه اسَمَ حيّ شفق خيّو، نسبةً إلى ذلكَ الشَّخصِ الذي بَدَأ يَظهرُ نجمُهُ في الناسِ، وأصبحَ أسمُهُ كنارٍ على علمٍ.

حتى البلديَّةُ عندما دوّنَتْ أسماءَ الأحياء غير المُنظمَة كي تضعَها ضمنَ خطَّة من أجل تنظيمها، وفرزهَا إلى مقاسمَ سكنية، رأَتْ أن تدوّنَ الحَيَّ باسمِه، فما من أحد سيعرفُ موقعَهُ إن وضَعَتْ اسماً آخر، فهو مكتوبٌ على مَدَاخل الحيّ، وفي أزقته، وعَندما يُقامُ عرسٌ في الحيّ، يُكتبُ على بطاقاتِ الدَّعوة: يُقامُ الحفلُ في بيتِ العريسِ الكائن في حيّ شفق خيّو.

أمَّا أصحابُ / السرابيس/ الذين يعملونَ على الخطّ، لمْ يجدُوا غير أن يكتبُوا على واجهاتِ سيَّاراتِهم: المدينة.. شفق خيّو.

حتى يُعرفَ الحي الذي يعملونَ على خطّه، فتتعالىَ أصواتُ جُباة / السرابيس/ في موقف السُّوق، وهم على الأغلبِ من الصّبيَةِ، ينادُونَ الرّكابَ: شفق خيّو.. شَفق خيّو.. شفق خيّو.

ويُمكنُ لمن يكونُ في المدينَةِ أن يسمَعَ هذا الاسمَ مئاتَ المراتِ بأصواتِ جُباةِ السرابيس.

إنهُ شفق خيّو الذي يُهيمنُ على أحاديث النَّاس في بيوتهم، ومجَالسهم، وأعمَالِهم، وأسفارهِم، في أفراحِهم، في أحزَانِهم، في جَدّهم، وهَزلِهم.

عندمَا يقولُ رجلٌ شاطحُ الخيال أمامَ جمعٍ من النَّاسِ بأنَّهُ يملُك مالاً، يَتناهَى صوتٌ خافتٌ من أَحدِ الحضُورِ: مثلُ شفق خيّو.

وعندمَا يقولُ رجلٌ شاطحُ الخيال بأنَّهُ سوفَ يشتري محلاً، يُجيبُ أحدُ الحضورِ بصوتٍ خافتٍ، أو مسموعٍ: مثلُ محلّ شفق خيّو.

عندمَا يقولُ رجلٌ متقدّمٌ في العزُوبيّةِ بأنَّهُ على أبوابِ الزَّواجِ، يُقالُ له: أبواب شفق خيّو.

حتى عندمَا يَقدمُ شخصٌ غيرُ مرغوبٍ فيه بزيارة أحد معارفه في البيت، وعندما يستأذنُ لاستخدامِ المرحاضِ، يقولُ أحدُ سكّانِ البَيتِ باستياءٍ شديدٍ: دُخولُ شفق خيّو.

يمكنُ لأيّ شخصٍ وهو يمضي في أحد شوارعِ المدينةِ بجانبِ جمعٍ للأطفالِ أنْ يسمَعَ أحدَهُم يوصم الآخر قائلاً: شفق خيو.

كان شفق خيو فتىً مجهولاً لا أحدَ يعرفُهُ، يعملُ أجيراً عندَ المُعلم (جورج) الذي يملكُ محلاً لبيعِ الأقمشَةِ في سوقِ المدينةِ، كانَ يفتحُ المحلَّ

في السّادسة صباحاً، يكنُسُ داخلَ المحلّ، وحولهُ بشكل جيد بانتظارِ أن يأتي معلّمُهُ في السَّابعة والنصف. عندئذ يهرعُ صوبَ المقهى، يوصي (زكوان) أجيرَ المقهى الذي يُماثلُه في العُمر كي يجلُبَ إبريقاً من الشَّاي مع القِرفَة.

بعدَ عودَته بلحظات إلى المحلّ، يلحقُهُ (زكوان) حاملاً إبريقَ الشّاي السّاخن رافعاً صوتَهُ: صَباحُ الخيرِ معلم جورج، أطيبُ إبريقِ شايٍ لأطيبِ مُعلم في السُّوقِ.

يبتسمُ المُعلّم جورج، ويناولُهُ سيجارةً، وإن كانَتْ علبةُ السّجائرِ تحتوي على ثلاثِ أو أربعِ سجائر، ينوّلُه العلبةَ كلَّها.

عندها يملأُ شفق خيو قدحاً من الشَّاي الساخن لمُعلّمه، ثمَّ يملأُ قدحاً لنفسه، ويقفَ كعادَته أمامَ المحلّ، يرتَشفُ الشَّاي، ويُدخّنُ وهو يُنادي الذينَ يمرّونَ بجانبِ المحّل: تفضَّلْ.. تفَضَّلْ.. أهلاً وسهلاً.. تفضَّلي يا أختي.. مال عرائس.. أحلىَ قماش لأحلى عروس.

ينادي العابرينَ، وهو يعرفُ كيف يلتقطُ الزُبُنَ ويدخلُهم المَحلَّ حيثُ المعلمُ جورج الذي يستقبِلُهم ببشاشَةِ وجهِه، وعباراتِ التَّرحابِ والسّعي.

يُمضي شفق خيو القسطَ الأوَّلَ من النَّهار واقفاً أو جَالساً على كُرسي حديديّ صغيرٍ يحتسي الشّاي ويُدخّنُ حتى تبلغَ السَّاعةُ الثانيةَ عشرةَ ظُهراً، عندئذ يركبُ الدراجةَ الهوائيّةَ التي اشتراها معلّمُهُ لخدمَة المحلّ، يتّجهُ إلى سوقِ الهال، يشتري ما يوصيه به المُعلّمُ جورج من سَلعٍ ويأخُذُهَا إلى بيته، ثمَّ يعودُ إلىَ عَمله حتّى تبلغَ السَاعَةُ الثانيةَ والنصف، حيثُ يحينُ موعدُ ذَهابِ معلّمه إلى الغداءِ، يُغادرُ المحلَّ قائلاً كعادته: المحلُّ أمانةٌ برقبَتِك يا شَفق.

بعد قليل يأتي (هيبت) العاملُ في مطعم (الجزيرة) حاملاً لهُ وجبةَ الغداء كعادته المكوّنة من صحنَ حمّص عليه (شاورما) مع إبريق من اللّبنَ الرائبَ، والمُخللَ، والسَلَطةَ، أو ربع كيلو غرام كباب، أو نصفُ دجاجة، وعندما يَحنُّ إلى الطبخ يوصي (آصف) العاملُ في مطعم (البركة) أن يُحضَرَ لهُ طعامَ الطَّبخ المُكوّن من الرُّز والفاصولياء، أو المجدرة مع اللَّحم المطبوخ والمرقة، أو البرغل والبازلاء.

عندمَا يفرُغُ من تناول الوجبة، يفتح درجَ النُّقود ويضعُ قيمةَ الطَّعام في الصَّحن بإذن من مُعلّمه الذي سمَحَ لهُ أن يأخُذَ من الدّرج سواءً بحضُورهَ، أو بغيابه قيمةَ وجبة الغداء، وقيمةَ علبة تبغ بشكل يوميّ عدا راتبُهُ الشَهريُّ الذي يُسلّمُهُ إيَّاه المُعلمُ باليد نهايةَ كُلّ شهر.

يبقى في المحلّ حتى يَأتي معلّمُهُ مساءً، يخبرُهُ عن البضَاعَة التي بَاعَهَا خلالَ هذه الفترة، وبعدَ قليل يركضُ صوبَ (زكوان) يوصيه أن يجلُبَ لهُ إبريقَاً من الشّايَ، ويبدأ نشاطُ النصف الثاني منَ العمل الذي يستمرُّ إلى العاشرة ليلاً.

خلالَ فترة القيلولَة هذه تخفُّ حركةُ النَّاس في السُّوق، وتُغلَقُ أبوابُ الكثير من المحلَّات.

أحياناً يصعدُ شفق خيو إلى (زريدية) المحلّ التي تحتوي على الأقمشَة الاحتياطيَّة.

يستلقي على ظَهره على لفَائف الأقمشة حتّى يسمَعَ صوتَ أحد الدّاخلينَ، فينزل ويستَجيبُ لهُ، وأحَياناً يأتي آصف، ويصعدُ على الفور يشاركُهُ الاستلقاءَ على الظّهر في تلك القيلولَة، وعلى الأغلب يستسلمُ آصف لغفوة حتَّى يوقظَهُ شفق خيو بعدَ ساعة ليذهبَ إلى عمله.

إنَّها القيلولةُ التي تكونُ بالنّسبة لهُ فسحةً للتّفكير في حياته المُستقبليَّة التي يقلقُ عليها كلَّ القلق، ولذلكَ لا يدّخرُ جُهداً في سبيلِ التخطيطِ للمَستقبَل وادّخارِ المال الذي سوفَ يعينهُ علَى شراء بيت في حَيّ جيد من المدينة، والَزواجِ مَن (فَردوسة) أخت صديقه آصف أجير مطعمِ البركَة.

تقفزُ صورةُ فردوسة إلى مُخيلته سواءَ أكانَ آصف موجوداً، أو كانَ وحدَهُ، يتذكرُ عندما جَاءتْ منذُ سَنَتين مع أمّها يرافقُهما آصف لشراءِ أقمشة بمُناسبة العيد.

عندما وقعتْ عيناهُ عليها، خفقَ قلبُهُ لأول مرَّة خفقات ملأتْ عروقَهُ نشوةً، عندها تخيّلَ بأنه يتزوجُها وينجبُ منهَا أطفالاً.

منذ ذلك اليوم عقد صداقة مع آصف، وغدا كل يوم جمعة حيث عطلتهما الأسبوعية يزوره في البيت، أويدعوه لزيارته، أو يتواعدان للذهاب إلى السينما أو المسبح.

كانَ شفق خيو في الثّامنة عشرةَ من عمره، وكانَتْ (فردوسة) في الخامسة عشرةَ. ذاتَ مرة تجَرأ وأعطَاهَا وردةً عندما فتحَتْ لهُ البابَ، فأخذتْهَا بسرعة، ودسَّتها في جيبِها مُبتسمةً.

لبثَ في بيت آصف حتَّى تناولَ الغداءَ معهُ، وعادَ إلى البيتِ مسروراً كأنَّهُ عقدَ قرانَهُ عليها.

بعد نحو شهرين كَتبَ لها رسالةً وكَعادته راحَ يطرقُ البابَ يومَ الجمعة حتَّى ينوّلها الرسالةَ، لكنَّهُ فُجعَ بآصفَ يفتَحُ البابَ قائلاً: أهلا شفق.. تفضَّل. اليوم أنا وحدي في البيت!

– خير إنشاءَ الله

– أهلي كلُّهم ذهبُوا لزيارَةِ بيتِ جدّي، ولا يرجعُون قبل الغروب.

علّتْ غصّةٌ إلى حنجرته وهو يرى البيتَ خالياً من حضور(فردوسة) التي كانَتْ تتقصَّدُ رفعَ صوتها حتّى يسمَعَهُ شفق، وكانتْ تدخلُ بينَ ساعةٍ وأخرى حاملةً الشّاي، أَو بعضَ الحلويات.

الآنَ يخيّمُ صمتٌ كئيبٌ على أجواء البيت وكأنَّه لم يعُد منزلاً سكنيّاً، يتحولُ أمامَ عينيه إلى مَغارَةٍ في كَهفٍ مجهولٍ.

في الجمعة التّالية جاءَهُ آصف باكراً إلى البيت وأمضَيا اليومَ كلَّهُ معاً فلبثَتْ الرسالَةُ في حوزَته مرَّةً أخرى، راودَهُ إحساسٌ بأنَّهُ يحملُ ثقلاً فوقَ طاقَته، خطَرَتْ لهُ أفكارٌ كثيرةٌ حتّى يتمكَّنَ من خلالها الذهابَ مع آصف إلى بيتِه، إلا أنَّهُ لم يُفلحْ رُغمَ عدة مُحاولاتٍ.

في الأسبوع التالي عند صبيحةِ يومِ الجمعةِ، خرجَ شفق بَاكراً من البيتِ مُتّجهاً نحو بيتِ آصف.

عندَما طرَقَ البابَ، فتَحتْ فردوسة وقالَتْ لهُ: أهلاً وسهلاً شفق الغالي.

ابتسم ووضعَ الرّسالَةَ خِلسةً في يَدِها وهو يَدخُلُ متَّجهاً إلى حيثُ غرفةِ صديقِه.

بعد نحوِ عشرةِ أيّامٍ فُوجِئَ بها تَقفُ مع إحدى الفتياتِ بالقُربِ من المحلّ!

دنَا منهَا سائلاً بِدهشةٍ: خير فردوسة.. تريدينَ شيئاً؟!

قالَتْ: لا.. ثُمّ التفتَتْ إلى الفتاة التي تُماثلُها في العمر مُستأنفَةً: هذه (غنى) ابنةُ خالي، اتّفقنَا مع آصفَ كَي نذهَبَ إليهِ حتّى يَأخُذنَا إلى محلٍ لنشتريَ حذاءً لهَا.

في تلكَ اللّحظة استعادَتْ ذاكرتَهُ كلماتُ آصف وهو يتحدَّثُ لهُ عن عَلاقَتِه العاطفيَّةِ بابنةِ خالِه (غنى) ولا يدري لماذا رَاحَ يقُارنُ بين جَمالها

وجمال فردوسة وهو يتأمَّلُ الوجهين، وفي أثناء ذلكَ وبشيء من الخفّة التي افتَعلَها عندمَا وضعَ الرّسالَةَ في كفِّهَا أمامَ بابَ البيت، راحَتْ فردوسةَ تَضعُ في كَفّهِ ورقةً مطويّةً، وعلى الفورِ انصرَفتْ الفتَاتانِ نحو مطعم البركة.

دسَّ شفق الورَقةَ المطويَّةَ في جيبه وهو يُلاحقُهما بنظراته حتّى اختفتَا في زحمة الأجسادِ التي ملأتْ سوقَ المدينةِ وكأنَّها تبَحثُ لَهَا عن موطئِ قدمٍ.

وقفَ شفق في واجهة المحلّ ثانيةً وغدا يُرددُ بصوته للعابرينَ: تفضَّلْ.. أهلاً وسهلاً.. تفضلي يا أخت.. عندنَا أحلى وأجود أقمَشَةِ عرائسٍ.

يُرددُ ذلكَ وهو ينتَظرُ أنْ يمضيَ الوقتُ حتّى ينصرفَ المُعلّمُ جورج، وينفردَ لقراءَةِ ما كتَبَتْهُ فردوسة جواباً عن رسالَته الأولى، ولو كانَ الأمرُ بيدِهِ لقالَ: اذهَبْ اليوم باكراً إلى الغداءِ يا معلمْ جورَج.

مضىَ الوقتُ ثقيلاً وهو ينتظرُ نُهوضَ معلّمه عن الكرسيّ بينَ فينة وأخرى حتّى نهضَ معلمُهُ من كرسيِّهِ متَّجهاً صَوبَ موقفِ السربيسِ الذي يأخذُه إلى البيت.

عندئذ سرَتْ رعشةٌ في عُروق شفق وهو يجلُسُ مكانَ المعلّم على الكرسيّ ويفتحُ الصّفحةَ المطويَّةَ بعنايَة فائقة حتى بدَتْ وردةٌ صغيرةٌ، وفاحَتْ الورقةُ برائحةِ عطرٍ رشتهُ فردوسةً على الصَّفحةِ الملوَّنةِ التي حملَتْ كَلماتِ حبيبتِهِ.

كانت تلكَ الرّسالةُ الجوابيَّةُ مرحلةَ تحول عاطفيّ بالنسبة لشفق، فقد أخبرتْهُ بأنَّ قلبَها يخفقُ بحبّه، وخيالُها يشرُدُ به حتى ساعة الفجر، ولا تدري لماذا تتخيلُ في تلك السَّاعَةِ أنَّهُ سوفَ يقعُ عليَها بقدرةِ قادرٍ، يأخذُها

إلى فُسحة خضراء لا أحدَ فيها غيرهما، وقبلَ أن ينهضَ أهلُها من النَّومِ يعيدُها على جناحَيه إلى فراشِها.

وفي نهاية الرّسالة قالتْ بأنَّها اضطرتْ للحديث مع ابنة خالها (غنى) عن مشاعرهَا الجيَّاشَة نحوَهُ، وأخبرتْهَا غنى بأنَّها رأتْ فيه شخَصاً مثَالياً عندمَا رأتهُ في المَحلّ.

طوى شفق الورقةَ وأعادَهَا كما كانَتْ إلى جيبه، وغدا ينظُرُ إلى علاقته بها بكثيرِ من الجديَّةِ، ولم يكُنْ يشعُرُ بالوقتِ الَذي يمضي حتّى فوجِئَ بدخولِ مُعلمه.

عند ذاك أدركَ بأنَّ القسطَ الأولَ من العملِ مضى دونَ أن يتناولَ الغداءَ، وأحسَّ للتو بوخزاتِ الجوعِ تنخُرُ معدَتَهُ.

عندما عَادَ إلى البيت، لم ينَمْ تلكَ الليلة بانتظار أنْ يحينَ الفجرُ لأنَّ فردوسة تكونُ مستيقَظَةً في ذاكَ الوقت وتتخيّلُ بأنَّهُ سوفَ يقع عليها بقدرة قادر، وكم تمنّى أنَّهُ لو امتلكَ تلكَ المقدرةَ الخفيَّةَ وحقَّقَ لها تلكَ الأُمنيةَ، لكنَّهُ في تلكَ اللَّحظات أدركَ بأنَّ الإنسانَ يملُكُ طاقةً محدودةً، وأنَّ خيالَهُ يشطَحُ إلى ما تعجَزُ عنهُ طاقتُهُ المحدُودةُ.

بدأ شفق يرسُمُ لمرحلة الزَّواج المُقبلَة، يدَّخرُ من أجره ما أمكنَ حتّى أنَّهُ طلبَ من مُعلّمه أن يذهبَ إلى البيت ويعودَ بواسطَة الدَّراجة الهوائيَّة ليوفّرَ أجْرَ ركوب السرابيس، وبعدَ نحو شهرين من ذلكَ طلبَ من مُعلّمه أنْ يزيدَ أجرَهُ قليلاً، فاستجَابَ لهُ المُعلَمُ وهو يقول: أنتَ عاملٌ نشيطٌ وأمينٌ يا شفق وتستحقُّ الزّيادةَ.

أمَّا بالنّسبة للبيت يا شفق، رُبما سوف تتزوج، وتقيمَ مع زوجَتكَ وأبويَكَ في هذا البيتِ الكبيرِ.

سوفَ تقومُ ببناء غُرفة جديدة لكما، تجري إصلاحاتٍ على البيتِ حتّى يكونَ مناسباً لحياتكَ الجديدة.

قدْ يزورُكَ معلّمكَ، يزورُكَ أهلُ فردوسة، يدخُلُ أناسٌ إلى بيتكَ لأوَّلِ مرَّة لتقديمِ التَّهنئة.

ينظرُ إلى البيتِ الطينيّ القديمِ الذي بناهُ أبوهُ لُبنةً لبنة في هذه المساحَة التي رآها شاغرةً ورأى الناسَ يبنونَ بيوتاً طينيةً عشوائيةً فيها.

كانَ ذلكَ عندمَا جاءَ أبُوهُ عازباً من القريةِ وقرَّرَ أنْ يُقيمَ في المدينة.

أحياناً يقول لشفق: أتَرى كُلَّ هذه البيوت يا شفق، عندمَا بنيتُ هَذا البيتَ لم تكنْ موجوداً، كانتْ البيوتُ خمسةً في هذا الحيّ، كانَتْ كلُّ هذهِ الأراضي شاغرةً حتى حدودِ المدينة.

عندهَا وضعَ يدهُ على مساحَة أربعمائَة متر من الأرض وقامَ بتحديدها بواسطَة حجارة سوداءَ، وبنَى فيها غَرفتَين طينيَّتين كما هو الحالُ بالنّسبةِ للفقراءِ الذين توافدُوا من القُرى إلى المدينةِ بحثاً عن مصادرِ المعيشة.

عَملَ (ظاهر خيو) في البناءِ حتَّى يستطيعَ جمعَ مبلغ كي يتزوَّجَ بهِ.

كانَ يخرجُ من بيته ساعةَ الفجر، ويعودَ مع الغُروب، بعد خمس سنوات من العمل غدا مُؤهلاً للزواج، عند ذاكَ راحَ يخطبُ إحدى الفتيَات القريباتِ لأحدِ زملائهِ في العملِ، وعندَمَا تمَّتْ الموافَقَةُ، كانَتْ في بيتهِ زوجةً بعد شهر.

لم تلبثْ السيدةُ (سَكَنْ) وقتاً طويلاً حتّى حملَت، فبعدَ ثلاثَة شهور ظهرَتْ عليها أعراضُ الحمل، عندئذ ذهبتْ إلى الدَّاية التي أكدَّتْ لهاَ الحملَ، وبعدَ ثمانيةِ شهورٍ ونصفَ من الحملِ أنجبَتْ بنَتاً سمَّاها أبوها بعد

يومين من ولادتها (رَهَا)، لكنَّ السيدةَ (سَكَنْ) أحسَّتْ بأنَّها لمْ تتخلصْ بعد من أعراضِ الحمل، وعندَمَا أخبرَت الدَّايةَ بذلكَ أجابتْهَا الدَّايةُ بأنَّها واهمةٌ، لأنَّها الولَادةُ الأَولى، وبعد أيَّام ستتخلَّصُ من ذاك الشُّعور، ولبثتْ (سَكَنْ) على إحساسهَا بأنَّهَا ماتزالُ تُعاني أعراضَ الحمل وكَأنَّها لم تُنجبْ، وبالفعل حدثَ ما صارَ حديثَ السَّاعة في المدينة كُلّها، فقدْ اشتدَّتْ عليهَا وخزاتُ المَخاض حتى تكلَّلتْ ساعةُ الفجَر بولادَةَ ولد ولادةً طبيعيَّةً بعدَ شهرين من ولادَةَ أخته، وسرُعانَ ما انتشَرَ الخبَرُ في أرجاء المدينة، فحضرَ بعضُ الأطباء للتَّأكدَ من هذه الظَّاهرة التي رأوهَا وسمَعُوا بهَا أولَ مرَّة دونَ أن يجدُوا أيَّ تفسير لَهَا، ولكَنَّ الدَّايةَ حضرَتْ وقدَّمَتْ تفسيرَهَا الدينيَّ لهذه الظَّاهرة قائلةً: صحيحٌ أنَا أيضاً أسمعُ وأرى هذه الحالَةَ الغريبةَ أوّل مرة في حياتي، لكنْ يبدُو أنَّهُ بقدرة قادر وقعَ حملٌ جديدٌ على حملٍ سابقٍ، ولا أملكُ غيرَ أنْ أقولَ: للهِ في خلقهِ شؤون.

عند ذاكَ قالَ ظاهر بأنَّهُ أطلقَ على مولوده الجديد اسم (شفق)، ومنذُ ذلكَ اليومِ بدأ يُقال لهُ: الذي ولدَ بعدَ أُختهِ بشهرين.

حتَّى عندما تَمَّ تسجيلُهُ في القيد المدنيّ ذهبَ الموظَّفُ إلى مديره قائلاً: كيفَ أضعُه توأماً وقدْ ولدَ بعدَ أَخته بشهرين، وإنْ لمْ أفعلْ ذلكَ كيفَ أكتبُ تاريخَ الولادةِ الذي يكونُ بعدَ ولادةِ أختهِ من أمّهِ ومن أبيهِ بشهرين؟!

قال لهُ أمين السجل المدنيّ: اكتبْ الواقعَ دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ.

عندما بلغَ شفق العاشرةَ من عمره، غدا يشتري لهُ أبوهُ الحمّصَ ويأتي به إلى البيت، فتقومُ أمُّهُ بنقعه في المَاء منذُ المساء وحتَّى الصباحِ، حيثُ تتفتحُ حبَّةُ الحمُّص ويكونَ جاهزاً للسلَقِ، فتقومُ صباحاً بسلقهِ ووضعهِ

في إناء، ثمَّ تضعُ في أعلاه كأساً، وتغطّيهِ بقماشٍ أبيضٍ حتَّى يحافظَ على سخونَتِه.

ينهضُ شفق في الصَّباح الباكرِ، يتناولُ طعامَ الإفطارِ المكّونِ من شاي ولبن، ثم يحملُ إناءَ الحمّص ويدورُ بهِ في الشّوارعِ وهوَ يُنادي: حمّص.. حمّصٌ.. حار وتازة يا حمّص.

يمارسُ شفق هذا العملَ خلالَ أيَّام الأعطال المدرسيَّة في الشّتاء، أمَّا في الصيف، فيذهبُ إلى معمل بيعِ المثلَّجات، يعطيه صاحَبُ المعملَ بَرَّاداً صغيراً مملوءً بقطعِ البوظَة، يعلّقُهُ على كَتفه بواسطَة الحزام المثبَّت به، ويدُورُ بهِ في الأحياءِ مُنادياً: بوظة.. بوظة.. يَا الله يا بَوظة، بَرّد قلبَك يَا مشوّب.

عندما بلغَ شفق الرابعةَ عشرةَ من عمره، وكان في الصَّف السابعِ، أخرجَهُ أبوهُ من المَدرسةِ حتى يعملَ بشكلٍ يومَيّ ويعينَهُ على المعيشة.

وعند ذاكَ أدركتْ (سكن) بأنَّها لنْ تحظى بالحملِ مرةً أخرى، وأنَّ حملَها الغريبَ كان الحملَ الأولَ والأخيرَ لها.

عَمل ابنُها سنةً في صالة سينما حيثُ كان يكنسُ الصَّالةَ كلَّ صباح، وعندمَا تبدأ العروضُ يدورُ بقطعِ الكاتو والبسكوت وَزجاجاتِ السَّوائلِ على الحضُورِ، ثم يعودُ إلى (البوفيه) يقومُ بما يتمُّ تكَليفُه بهِ.

بعد سنة من عمَله في السينما وبينَما كان يُمضي أحدَ الأيامِ في السُّوقِ ماراً بجانبَ محلاّت الأقمشةِ سمعَ صوتاً يُنادي به: يا صبي.. يَا صبي.

توقفَ ونظرَ إلى الرَّجل الذي يُناديه من داخلِ محلٍ، فأشارَ لهُ الرَّجلُ الجالسُ خلفَ طاولةٍ براحَة كفّهِ ليدخلَ.

عندئذ مدَّ خطواته إلى الداخل حتّى وقفَ قبالةَ الرَّجلِ الذي قالَ على الفور: إيِّش تشتغل يا صبي؟

قال: أشتغل في السّينما.

قال: يلزمني صبيّ بعمركَ حتى يشتغلَ عندي في المحلّ.

رغمَ أن المُعلمَ جورج طلب إليه أنْ يجدَ لهُ أحدَ معارفهِ للعملِ، إلاَّ أن فكرَةَ العملِ قفزَتْ إلى مُخيلتهِ وارتَاحَ لها.

بعد يومين وعندَما استقرَّ على فكرة تركَ السّينما والعمل في المحلّ، قالَ لأبيه بأنَّهُ يريدُ أنْ يتركَ العملَ في السَّينما، ويعملَ في أحد محلاَّت بيعِ الأقمَشة، وفي صبيحة اليومِ التالي استأذنَ معلّمهُ بترك المحَلّ وذهبَ مع أبيه إلى حيث محلّ المعَلم جورج قائلاً بأنَّه تركَ عملهُ في السّينما ويريدُ أن يعملَ عنده.

رحّب بهِ المعلمُ جورج وقال: عفارم عليك ياشفق.

وجعلَهُ يباشرُ العملَ في ذاتِ اليوم.

عندما بلغَ شفق خيو العشرينَ من عُمره، بدأ اسمُهُ ينتشرُ في أرجاء المدينة وذلك عندمَا زارَ صديقَهُ آصف يومَ الجمعة كعادته، ويُقالُ بأنَّهُ دخلَ المِرحاضَ، وبعدَ قضاءِ حاجتهِ فُوجِئ بأنَّ المياهَ مقطوعَةٌ.

ارتبَكَ وهو يُفكرُ في طريقة للغسل، فوقَعَ نظرُهُ على زُجاجة موضوعَة في إحدى زوايَا المرحاض، بدَتْ لهُ بأنَّهَا مملوءةٌ بالماء، فتحَ سدّادةَ الزجاجَةَ وصارَ يغتسلُ بما تحتويه من مياه، وبعد أنْ فرغَ، أحسَّ بحرقَة موضعَ الغسل، اشتَدَّتْ عليه الحرَقَةُ حتىً خرَجَ من المرحاضِ وغدا يتراقَصُ ويصرَخُ من شدَّةِ الألَمِ الذي التَهَبَ في أعلى ساقيهِ.

عندئذ علمَ أهلُ البيت بأنَّه استخدَمَ مادةَ (التنر) بدلاً من الماء، ويُحكى أنَّ صديقَهُ آصف كان قَدْ قامَ بطلي السرير العائليّ الكبير الذي ينامُونَ عليه جميعاً على سطح البيت في الصَّيف، وعندَمَا زادَ شيءٌ من (التنر) الذي خلَطَهُ مع علبَة الطّلاء، تركَ الزُّجاجةَ في المرحاض، وبعد نَحو ساعة جاءَ شفق خيو ووقَعَ لهُ ما وقعَ، وعلى الفور تم نقلُهُ إلى عيادة أحد الأطباء.

ومن جانب آخر يُروى أنَّ شفقْ دخلَ المرحاضَ ذاتَ يوم، وبعدَ قليل دخلَتْ عليه فردوسة، فرآهَا آصف الذي كَظمَ غيظَهُ، وراحَ يفكّر في طريقةً ذكيَّة ينتقمُ بها من هذا الصّديق الخائن للعشرة، فخطّطَ لطلاء السرَّير يومَ الجمعة وهو على علْم بزيارَة صديقه. عندَمَا فرغَ من ذلكَ وضعَ الزُّجاجةَ التي تحتوي على ما فضلَ من (التنر) في المرحاض.

جاء شفق في موعده، وعند العصر طلبَ أن يستخدمَ المرحاض، فأذنَ لهُ آصف بذلك بعد أَنْ سبقَهُ وأفرغَ محتوى الزُّجاجة في إبريق المَاء الموجود في المرحاض، وحدثَ له ما حدثَ، والدَّليلُ أن العلاقَةَ انقطَعَتْ بينَ الشّابين، وأن آصف يُشيعُ في الناس بأنَّ شفق فقد رجُولَتَهُ في هذه الواقعة، الأمرُ الذي وقفَ حائلاً بينَهُ وبينَ أيّ خطوة يُمكنُ لهُ أنْ يخطُوهَا نحوَ الزَّواج، فقدْ أشيعَ بأَنَّ شفق خيو تلقَّى العقابَ غير المُباشر من صديقه، وهو رجلٌ خائنٌ لا يؤتَمَنُ على مالٍ أو عرضٍ.

من جانبه أرادَ شفق خيو أنْ يُكذّبَ هذه الإشاعةَ وهو يقولُ للناس بأنَّ الأمرَ وقعَ بمَحض صُدفة عندمَا دعاهُ صديقُهُ آصف لتناوُل الغداء المُكوّن من الأمعاء المحشوَّة بالرزّ، فلبَّى دعوتَهُ، وبعدَ الغداء شربا الشّاي، وتسلَّيا بورق اللَّعب حتَّى العصر، عندهَا استأذَنَ صديقُهُ لاستخدام المرحاض، وهُناكَ اكتشفَ عدمَ وجود الماء في الإبريق الموجود في المرحاض، وعندمَا وقعَ نظرُهُ على الزُّجاجة، ظنَّ بأنَّها تحتوي على الماء للشبَه الشّديد بين السَّائلين، فاستخدَمَ محتوى الزُّجاجة، وجرى لهُ ما جرى قضاءً وقدراً.

لكنَّهُ خاصمَ آصف بسببِ إهماله في عدمِ تحذيرِه من مُحتوى هذه الزُّجاجة عندما استأذَنَهُ في اِستخدامِ المرحاضِ، وقد مضىَ الأمرِ بسلامٍ كأنَّ شيئاً لم يحدثْ.

مضى الأمر بسلام وفقَ رواية شفق خيو، إلاَّ أنَّ الناسَ بدؤوا يُلاحظُونَ عليه تصرفاتَ مُريبةً عندمَا عادَ إلى عمَله بعد شهرين من البقاء في البيت لتلقَي العلاجِ، فيمكنٌ لهُ أنْ يتصرَّفَ تصرَّفات غير لَبقة بشكل مَفاجئ في جمعٍ من النَاس، كَأنْ يضحكَ دونَ سبب، ولا يستطيعُ مقاومَةَ موجةِ الضَّحك، أو بُغتةً تنهَمرُ دموعٌ من عينيه، ويغورُ في البكاء، أو يضرطَ أمامَ جمعِ مَن النَّاس بشكلَ يوحي بأنَّ ذلكَ يحدثُ خارجاً عنَ إرادَته، وأحياناً عندما يكونُ في مَجلسٍ ويتحدَّثَ بعضُ النَّاسِ، يصدُرُ منهُ صراَخٌ مباغتٌ: بس.. بس..

لاحظَ عليه معلِّمهُ هذه التصرفات المُريبة التي تحدُثُ أمامَ الزُّبن، لكنَّهُ علمَ بأنَّ ذلكَ يحدُثُ رغماً عنه، ومعَ الأيّامِ قدْ يتماثَلُ للشّفاء، إنَّهُ شفق خيو الأمينُ والمُخلص والنَّشيطُ الذي منَ الصَّعبِ أن يحظى ببَديلٍ عنهُ.

بعد سنتين من الحادث الذي تعرَّضَ لهُ تزوَّجتْ فردوسة، فأصيبَ شفق بنكسةٍ ألزمتْهُ البقاءَ في فراشِ المرضِ ستةَ شهور.

كانَتْ فردوسة هي المُستقبلُ الذي يُنشدُهُ، الحبُّ الأولُ الذي دغدغَ شغافَ فُؤاده.

ها هي تُرسلُ لَهُ رسالةً مع غنى تقولُ فيهَا بأنَّ آصف هدَّدَها بما لا يُحمدُ عقباهُ إذا استمرَّتْ علاقتُها الخفيَّةُ بشفق لأنَّ خَبرَ عن رسَائلَ متبادلة بينهما، والأمرُ الأكبرُ من هذا أنَّه ألمحَ لأبيه بأنَّ فردوسة يُمكنُ أنْ تهربَ مع شفق، فلمْ يكُن بوسعها غيرُ الموافقَة على الزَّواج من شخص تقدَّمَ إليهَا عندمَا مارسَ أبوها بعضَ الشّدةِ حتَى تقبَلَ الزواجَ. قال لهاً

عبارةً واحدةً: الأفضلُ لكِ ولنا أن تتزوجي بسترٍ يا بنتي لأنَّني لا أسمحُ بغيرِ ذلك.

بعدَ أن تماثلَ شفق للشفاءِ وعادَ إلى عملِه، فوجِئ بصبيّ يعملُ مكانَهُ.

قالَ له المعلّمُ جورج: هذا (نقشو) عملَ في المحلّ بغيابِكَ يا شفق، على العمومِ اعمَلا معاً حتَّى نرى مَا يحدث.

أدركَ شفق بأنَّ المُعلمَ قصدَ بكلامه إنْ كانَ قد تخلّصَ خلالَ هذه الشُّهورِ من تلكَ التصرفاتِ التي تجتَاحُهُ أمَام الناسِ ولا يحسنُ السيطرةَ عليها.

من جانبه بدأ يسعَى بكلّ جهده حتى يُقاومَ هذه التّصرفات ويتحكَّمَ بها، واستعَانَ ببعض الأَطبَّاء لمُسَاعَدته، لكنَّهُ أخفَقَ في ذلك، الأَمرُ الذي جعَلَ المُعلّمَ جورج يتَّخَذُ قرارَهُ النهائيَّ بَعدَ سنة أخرى من الانتظار، حيثُ بدأ النَّاسُ يتحلّقونَ حولَ المحلّ قائلينَ لشفقٍ باستهزاءٍ: شفق.. شفق.. هيّا اضرط.

فيفعلُها ويصفّقُ عمّالُ المحلاّت المجاورة. حتّى أنّ بعضَ أصحاب المحلاَّت عندما يزُورونَ المُعلمَ جورج يعلّقونَ على شفق: أما زلتَ تضرط؟ فيضحَكُ وهو يفعلُها بشكلٍ متواصلٍ.

وترامى إلى سمعِ المُعلّمِ جورج أنَّ البعضَ بدأ يُناديه: شفقٌ الضرّاط، بدلاً عن شفق خيو

قال المُعلمُ جورج: أنت عملْتَ في هذا المحلَّ عشرَ سنوات، لكنْ يا بُني منذ واقعةِ (التنر) وأنا أصبرُ عليكَ لعلّكَ تتعافَ من أثرِ الصَّدمةِ.

جمدَ شفقٌ قبالةَ معلّمه باستغرابٍ وهو يُصغي إلى لهجَته الحادَّة التي يتحدَّثُ بها وكأنَّهُ يتحدثُ إلى شخصٍ موبوءٍ، فقالَ: نعم يا مَعلم جورج.. أنت تفصّلُ، وأنا ألبسُ.

قالَها وهو ينظُرُ إلى (نقشو) نظرةَ مَن جاءَ ليخطُفَ من فَمه لقمةَ العيش، وكانَ قبلَ ذلك يعتبرُهُ زميلاً لهُ في العملِ، يقولُ لهُ: نقشبنَد.. أنتَ أخي، أَراكَ أكثر ممَّا أرى أهلي.

فيجيبُ نقشو: وأنتَ أيضاً أخي يا شفق.

استأنَفَ المُعلمُ جورج كلامَهُ الحَاسِمَ: ابحثْ عن عملٍ آخر يا شفق، نقشبند وحدَهُ يكفي لخدمة المحلّ.

توغلَتْ الغصَّةُ في حنجرَته، ثُمَّ راحَ ينظُرُ إلى الأقمشة التي أمضىَ معَهَا عشر سنوات من عُمرِه، نَظَرَ إلى (الزريدية) التي طالَمَا تمدَّدَ فيها على ظَهرِه لأخذ قسط منَ الرَّاحة، نظرَ إلى البابِ الذي يرفَعُهُ كلَّ يومٍ في السَّادَسة صَباحاً، ويغلقَهُ في العَاشرَة ليلاً.

اغرورقتْ عيناهُ بالدموعِ وهو يوزّعُ نظراته بين معلّمه، وبينَ نقشو، ثمَّ بعد قليل غادرَ بخطوات باردة والغصَّةُ تعلوَ حُنجرتَهُ كَأَنَّهُ يغادرُ عالَمَاً كاملاً، يُغادِرُ حياةً كاملةً وليسَ محلاً صغيراً كانَ يعملُ فيه أجيراً.

بعد عدة خطوات، أحسَّ بأنَّهُ لم يعدْ يقوى على السَّير، فجلسَ على الرصيف نحو نصفَ ساعة، ثمّ نهضَ وأكملَ بخطواتهِ المُترنّحة صوبَ البيتِ والدُّموعُ تنهمرُ من عينيه.

كانَ كلُّ ما يحزنُه هو أنهُ لنْ يعودَ صباحاً إلى عمله، لنْ يعودَ إلى مُمارسَةِ تلك الطُّقوسِ اليوميَّة.

للتوّ بدأتْ الأمورُ تجلُو أمامَهُ، بدأ ينظرُ إلى الأحداثِ التي وقعَتْ لهُ نظراتٍ أكثر مرونة وواقعية.

يدرك كمْ كانَ ضعيفاً أمامَ نداء فتاة غرَّرتْ به، وأفقدَتْهُ صديقاً ليسَ عزيزاً فحسب، بلْ رحيماً وحكيماً في ردِّ فعله، وكانَ يمكنُ لهُ أنْ يشرعَ في قتلهِ وقتلِ أختهِ، ويزرَعُ عداءً مزمناً بينَ عائلَتَينِ.

ذاكَ الأجيرُ البسيطُ تَبدُرُ منهُ مواقفٌ حكيمةٌ كردّ فعل على تصرُّفِ صديقه السلبيّ، وكانَ يُمكنُ لهذا الصَّديقِ أنْ يدخُلَ ببساطَةٍ البيتَ معَ أبويهِ طَالباً فردوسة للزَّواجِ.

الآنَ تزوّجتْ أختُهُ، وابتعدَ عن ذاكَ الصَّديقِ غيرِ الموثوقِ بهِ بعدَ أنْ وجَّهَ إليهِ عقاباً رأى فيهِ الحكمةَ أكثر من أيِّ عقابٍ آخر.

اجتاحتْهُ نوبةٌ من البكاء بصوت مُرتفع كأنَّهُ طفلٌ صغيرٌ، رافقَها شعورٌ بأنَّهُ شخصٌ متطفّلٌ على الحياةِ، وهو غيرُ جديرٍ بالعيشِ فيها، حتّى معلّمُهُ طردَهُ من العَمل، واستبدَلَهُ بشخصٍ نافعٍ آخر.

أمضىَ شفقٌ ثلاثَ سنوات دونَ أنْ يخرُجَ من البيت، ويُقالُ بأنَّهُ باتَ يخافُ الخروجَ حتَّى إلى الشَّارع، وعندمَا يكونُ جالساً في فناء البيتِ ويُطرَقَ البابُ، يهرَعُ مُسرعاً إلى الدَّاخلِ دونَ أنْ يجعلَ أحداً يراهُ.

أحسَّ أبوهُ بأنَّهُ سوفَ يخسرُ ابنهُ الوحيدَ، فبدأ يستعينُ بالطبِّ الشعبيِّ بعدَ أنْ فقدَ الأملَ بشفائه لدى أطبَّاء الأمراض النَّفسيَّة والعصبيَّة التي دخَلَ عياداتَهُم في غالبيةِ مُدن البلادِ، ثم اهتدى إلى الاستعَانة ببعضِ الشّيوخِ المعروفينَ بطردِ الأرواحِ الشرِّيرةِ والوساوس، لكنْ دُونَ جدوى.

ذاتَ يوم قالَ لأبيه بأنَّهُ يُريدُ أنْ يَشتريَ حصاناً وعربةً خشبيَّةً حتَّى يعملَ في شراء الخبزِ اليابسِ من الأحياء الشَّعبيَّة وبيعه إلى أحدِ التُّجارِ الذين يشترونَ الخبزَ اليابسَ ويبيعونَهُ إلى مُربّي المواشي.

اضطرَّ أبوهُ أنْ يستدينَ مبلغاً آخرَ إضافةً إلى ما تراكَمَتْ عليه من الدُّيونِ نتيجةَ ما حلَّ بابنهِ الوحيدِ، واشترى لهُ مُبتغَاهُ.

كانَ ظاهر خيو على استعدادً لفعْل أيّ شيء من أجل أنْ يُلبي طَلباً لابنه، يذهبُ في موسم الحصاد للعمل طبّاخاً لعمّال الحصادة، يُمضي شهرين في القُرى حتَّى يأتي بمبلغٍ يُلبّي به مطلباً من مطالب ابنه، وعندمَا يُعاتبُهُ الأقرباءُ والجيرانُ يقول: لا تلومونِي.. إنَّهُ ابني الوحيد.

بل أحيانَا يذهبُ إلى أقربائه الأغنياء في القرى البعيدة حتّى يعطُوهُ زكاةَ أموالهم، فيشفقُونَ عليه قائلَينَ: كانَ الله بعونه.. ليسَ لهُ غيرُ ابنٍ واحدٍ، ووقعَ له ما وقعَ.

غدا شفق خيو يتجوَّلُ في الأحياء الشَّعبيَّة وهو يُنادي بأعلى صوته: (خبز يابس.. اللي عنده خبز يابس للبيع).

وفي المساء يفرشُ ما اشترى من الخبز على سطح الدَّار حتَّى يكثُرَ، ويأخذُهُ بسيَّارةٍ إلى التاجرِ الذي يضَعُهُ على القبّانِ الضَّخمِ، وينقدُهُ قيمتَهُ.

بعد سنةٍ ونصف فوجِئ شفق خيو ذاتَ صباحٍ بموتِ حمارهِ في الزّريبةِ.

أتى بسيَّارةٍ وربطَ قائمَتيه بها، وراحَ يرميه خارجَ المدينة.

عند عودَته، اتجهَ إلى المَزاد، وجلَبَ شخصاً اشترى منهُ العربَةَ الخشبيَّةَ وهو يقولُ لأَبيهِ: لا نصيبَ ليَ في هذه المهنةِ بعدَ موت حصاني.

بعد ذلك انقلبَ شفق خيو عكسَ ما كانَ عليه، فغدا يُمضي كلَّ أوقاته خارجَ البيت، يزورُ الأقربَاءَ في القُرى البعيدة، يدخُلُ بيوتَ الجيران، بيوتَ المعارف، ويَتحدَّثُ بما يخطُرُ لهُ على بالٍ حتى أشيعَ في المدينة بأَنَّ شفق خيو جُن.

بَدَأتْ السّنواتُ تَمضي وشفق خيو يُراوحُ في هذه الحال، وقدْ فقدَ أبُوهُ الأمَلَ في شفائه، فهو يبقَى في البيت دُونَ أنْ يراهُ أحدٌ، أو يبقَى خارِجَ البيتِ ولا يدخلهُ إلاَّ نَادراً وفي أوقاتٍ متأَخرة من اللَّيلِ.

تزوَّجَتْ أختُهُ رَهَا، وبعدَ ذلك ماتَتْ أمُّهُ، ثمَّ لحقَها أبُوهُ.

وفجأةً رأى شفق نفسَهُ وحيداً في البيتِ دُونَ أنْ تربطَهُ عَلاقةٌ بأحدٍ.

يَجلُسُ في البيت مُستسلماً لموجَات الأحلام التي تَجتاحُهُ، يتخيّلُ بأنَّهُ يتزوّجُ فتاةً جميلةً، ينجبُ منها أطفالاً، يسكُنُ بناءً في المدينة، يدّخرُ أموالاً في المَصرِفِ، يشتري أبنيَةً وعقارَاتٍ، ويُتاجرُ بها.

يأتيه الجوارُ وهم يقدّمونَ لهُ زكاةَ الفطرِ في شهرِ رمضان، يتحدّثُ لهم عن أحَلامِه وكأنَّها حقيقةٌ.

يقولُ بأنَّهُ يملكُ الشقَقَ السّكنيةَ، والأراضيِ الزّراعية، يملكُ أموالاً في المصرِف.

وبينَ حينٍ وآخرَ كلَّما رأى فتاةً جميلةً، شطَحَ به الخيالُ بأنّها زوجتُهُ بالفعل ولهُ منها خمسةُ أبناء، وثلاثُ بنات، يتصرّفُ كما لو أنه أبٌ، ويضعُ شروطاً لمنْ يأتي لخطبة بناتِه، يتحدّثُ بذلكَ للنَّاس الذين يلتقيهمْ، ويقولُ بأنّهُ أخفَى هذه الحقيقةَ عنَ النَّاسِ حتى لا يُصابَ بالحسَدِ، أَمَّا زوجتُهُ وأولادُهُ، فإنَّهم يعيشونَ في بيتٍ آخَر.

بعدَ عدة شهور، يُشيعُ في النَّاسِ بأنَّهُ اتَّفقَ مع فتاة أخرى للزَّواجِ بها، وقد قبلَتْ أَن تعيشَ معهُ في البيتِ الذي يسكنُهُ، أمَّا البيتُ الثّاني فيبقَى لزوجَتِهِ الأولى ولأولادها.

يصطَحبُ معهُ أحدَ الأقرباء لخطبتهَا، فيضحَكُ أهلُ الفتاة وهم يقولونَ: نَعم النَّسبُ يا شفق خَيو، لو أَتيتَ البارحَةَ، لما سبَقَكَ مَن جاءَ لخطبَتِهَا وَوافقَتْ عليهِ.

يعودُ قائلاً للناس بأنَّهُ تأخَّرَ، والزَّواجُ نصيبٌ، بعدَ شهور أخرى يأخذُ بعضَ النَّاسِ معهُ إلَى بيتٍ آخرَ طالباً الزواجَ من ابنتِهمْ، فيسمَعُ ذاتَ الجوابِ.

يُقسمُ للناس بأنَّ الفتاةَ قالتْ لهُ: إنْ كنتَ تحبّني يا شفق، عبرْ عن محبّتكَ لي بالفعلِ.

قلت: كيف؟

قالت: تعالَ واخطبني، وسوفَ أُوافقُ حتَّى لو رفضكَ أهلي جميعاً، سوفَ أتحدّاهُم يا شفق، ما عليكَ غيرُ أن تتقدَّمَ، وَدَع الباقِي عليَّ.

كلَّما سألَهُ شخصٌ: متى تتزوجُ يا شفق؟

قال بجديَّة: هذه الأيَّام.

تمضي السنواتُ بشفقٍ على هذهِ الوتيرَةِ وكلُّ سنةٍ يكتَسِبُ فيها شُهرةً أكثرَ من سابقتها.

يمضِي في الطُّرقاتِ وهو يقول: (يا ألله يا كريم.. يا مرخّص الحريم).

ذاتَ يومٍ ذهبَ إلى سوقِ العمّالِ قائلاً بأنَّهُ يحتاجُ إلى عشرةِ عمَّالٍ.

اجتمعَ حولَهُ العمَّالُ، فانتقَى عشرةً منهُم وقادَهُم إلى أحدِ الأبنيةِ السَّكنيّةِ.

قال لهُم: لقدْ اشتريتُ هذا البناءَ وغداً سوفَ أهدّهُ حتى أبنيَ بدلاً عنهُ بناءً جديداً يحتوي على شققٍ سكنيّةٍ ومكاتبَ.

اتّفقَ معهُم على أجرِ تنظيفِ الموقعِ بعدَ هدّهِ حتّى يُمسي جاهزاً للبناءِ.

قالُوا بأنَّهُم يحتاجُونَ إلى يومين من العملِ، واتَّفقَ معهُم على الأجرِ وعلى المَوعدِ الذي يكونُ صباحَ الغدِ.

جاءَ العمَّالُ صباحاً فوجدُوا البنَاءَ على حَاله، لبثُوا حتّى العصر دونَ أنْ يظهَرَ شفق خيو، فعادُوا إلى بيوتِهم وهم يكَيِّلونَ لهُ السبابَ.

بعدَ عدّة أيّامٍ عادَ شفق خيو إلى سُوقِ العمّال. غدا يُمازحُهُم، ويمدُّ يدَهُ إلى فُروجهِم ضاحكاً، فيتهرّبونَ منهُ وهو يُلاحقهُم بحركَاته ونكاته، يتقدَّمُ إليه عاملٌ جديدٌ يدخل السّوقَ أوّلَ مرة، يمدُّ شفق خيو كَفَّهُ مسلّماً عليه، وعندَمَا يستجيبُ العَاملُ بمدّ كفّه لتلقّي السَّلام، يخدعُهُ شفق ويَمدُّ كفَّهُ بخفَّة إلى فرجه ويقبضُ على ذكرَه بحزم، فيُطلق العاملُ صرخةً، ويضحكُ جميعُ العمَّال الذينَ يتحلَّقونَ حولَهما حتى يتمكنَ العاملُ من الإفلات منهُ هارباً. يقولُ شفق خيو بأنَّهُ يحتاجُ إلى ثلاثةِ عمالٍ من أجلِ كسرِ بلاطِ شقَّةٍ سكنيَّةٍ.

فلا يتقدَّمُ إليهِ أحدٌ من العمَّالِ القُدامى، ويُهرولُ إليهِ عمَّالٌ جددٌ يرونَهُ أوَّلَ مرةٍ.

في اليومِ التَّالي يقولُون لزُملائِهم بأنَّهم تلقَّوا مقلباً من شفق خيو.

غدا شفق خيو معرُوفاً في سوق العمَّال، فهو كُلَّما دخلَ السُّوقَ أرسلُوا معَهُ عمالاً يأتُونَ إلى العمل أولَ مرّة، وفي اليوم التَّالي ينكّتونَ عليهم قائلينَ وهم يغمزُونَ بعيونهم: كَانُوا يشتغلُونَ عندَ الذي يصغُرُ أختَهُ بشهرين.

ويُحكى أنَّهُ ذاتَ يوم تحدَّثَ في الهاتف مع معلّم أحد المطاعم الكُبرى في المدينة طالُباً أنواعاً من الطَّعام إلى بيته.

وبعدَ أن أحضرَ العمَّالُ الطَّعامَ إلى العنوان، أعادُوهُ بصحبة شفق خيو إلى حيث المعلّم قائلين: هذا هو شفق خيو الذي أخذنَا لهُ الطّعام يا مُعلم.

فطردَهُ صاحبُ المطعم وهو يدفَعُهُ بقدمه على قَفاه.

ذاتَ مرَّة سمعَ شفق خيو أنَّ أحدَ أقربائه سوفَ يذهبُ للدراسة في فرنسَا، فذهَّبَ إليه قائلاً: اسمعْ يا بُني، أعطَيكَ رسالةً لمختار باريسَ، أعطِهَا لهُ، وهو يتدبَّرُ أمركَ.

وكتَبَ في الرّسالة: من شفق خيو مُختار حيّ شفق خيو إلى زميله مُختار باريس..

يُرجَى مُساعدَةُ مواطنَنَا حامل هذه الرّسالة قدرَ الإمكان، ونشهدُ بأنَّهُ من ذوي الأخلاق الحميدَة، والسُّلُوك الحسن.

ويُقالُ في المدينة بأنَّ الشَّاب عادَ بعدَ سنة من دراسَته في فرنسا قائلاً بأنَّهُ ذهبَ إلى مُختار باريس وسلّمَهُ الرسالةً، فلمْ يدَّخرَ المُختارُ جهداً في مُساعدَته، وأعطَاهُ رسالة جوابيةً لنظيره.

ويروي النّاس في مجالسهم أنَّ شفق خيو ذاتَ مرَّة ذهبَ إلى إحدى القُرى زائراً حتّى يرتَاحَ قليلاً من ضجيج المدينة، واختَارَ بيتاً فقيراً من سائر بيوت القرية كي يحلَّ ضيفاً عليه.

عندمَا رآهُ صاحبُ البيتِ قالَ لأهلِهِ وهو يُحرّكُ أصابِعَهُ بجانبِ صدغِه: رجلٌ على البركةِ.

بعد تناُولِ طعامِ الغداءِ اجتمعَ بعضُ سُكانِ القريةِ في البيتِ للتعرُّفِ على شفق خيو، عندئذٍ لفتَ نظرَهُ منظرُ طفلٍ كبيرِ الحجمِ يزحَفُ نحوَ أبيهِ.

قال شفق: ابنُكَ كبيرُ الحجمِ يا أبا عقل؟

قال الأب: عمرُهُ ثلاثُ سنواتٍ، ومازالَ يخافُ من المشي.

نادى شفق خيو الطفلَ قائلاً: تعالَ إلى عمّكَ.

قال الأبُ وهو يقرّبُهُ من شفق خيو: اذهبْ يا عقل إلى عمّكَ، عسى اللهُ أنْ يشفيكَ على يديهِ، وتتخلَّصَ منَ الزّحفِ.

عندما استوى عقلٌ في حُضنِ شفق خيو قالَ لأبيهِ: مِمَ يخافُ عقل؟

قال الرجل: يخافُ من الكلابِ كثيراً يا أخ شفق.

قال: هل تُريدُ أن أجعَلَهُ يمشي اليومَ؟

قال الرجل: نعم أُريدُ.

قال شفق: دعوني مع عقل.

خرَجَ الرّجالُ، ولبثَ شفق مع الطّفلِ الصّغيرِ. بعدَ نحو نصف ساعة من الخلوةِ خرجَ تاركاً الطفلَ وحدَهُ في الغُرفةِ وقالَ: أريدُ كَلباً منَ كلابِ القريةِ.

أحضرُوا لهُ الكلبَ، فغدَا شفق يُمسدُ بكفّهِ على رأسِهِ ويُدندنُ لهُ، ثمَّ فتحَ شقَّ البابِ وأدخلَ الكلبَ على الطّفلِ.

لمْ تمضِ لحظاتٌ حتّى انطلقتْ صرخَةٌ من الطفل الذي فتَحَ البابَ وغدا يركضُ مذعوراً نحو الأراضي الزّراعيّة يلحقُهُ الكَلبُ وهو ينبَحُ خلفَهُ، لحقَهُ الرجالُ حتى أمسكُوا بهِ بعدَ أن قذَفُوا الكلبَ بالحجارةِ ليبتعِدَ عنهُ.

عندهَا عادُوا جميعاً إلى الغرفة، وقدّمَ الرجلُ شكرَهُ لشفق على صنيعه مع ابنهِ الذي تحرّرَ من الزَّحفِ، وخرَجَ عائداً إلى البيتِ ليُفرَح امرأتَهُ بالخبرِ.

عند المساء عادَ الرجُلُ مع ابنه قائلاً: صارَ عقلٌ يخافُ القعودَ يا أخ شفق، حتّى أَنّهُ نامَ واقفاً، وعندَمَا وضعنَاهُ على الفراشِ، انتفَضَ واقفاً، إنَّهُ يرتَعِبُ من الجلوسِ.

قال شفق: دعُونِي معهُ.

خرجَ الرّجالُ مرّةً أخرى من الغرفَة، ليختَلي شفقٌ بالطّفلِ نحوَ نصفِ ساعةٍ، ثمّ مدَّ رأسَهُ طالباً إحضارَ ذات الكلبِ.

عندمَا أحضرُوا الكلبَ، فتَحَ شفق شقَّ الباب، وسحبَ الكلبَ من رسَنِه نحو الدّاخلِ، لبثَ نحو نصفِ ساعةٍ وخرجَ إلى فناءِ الدَّار.

مسَّد بكّفه على ظهْرِ الكلبِ الذي أنَاخَ لهُ ظَهرَهُ، ونادى الطّفلَ الذي تَقدَّمَ واستوى على ظهْرِ الكلبِ.

أمسكَ شفق برسَنِ الكلبِ وصارَ يمشي بهِ والطّفلُ على ظهرِهِ حتّى دارَ بهمَا بعضَ طُرقاتِ القريةِ وأعادَهُما إلى ذاتِ المكانِ.

عندئذٍ نزلَ الطفلُ، وغدا الكلبُ يُهرولُ بعيداً.

عندما دخَلَ الرجالُ الغرفَةَ، مشىَ عقلٌ إلى أبيهِ وجلَسَ بجوارِهِ كأَنَّهُ رجلٌ صغيرُ الحجم.

تسامَرَ رجالُ القريةِ مع شفق وهو يبدي حركَاتٍ مُسلّيَةً يروي لهُم بعضَ النكاتِ.

وزهاءَ منتَصف اللّيل، وقبلَ أنْ ينصرفُوا إلى بيوتِهم قالَ لهُ صاحبُ البيتِ: قُلْ لنا نكتةً نختُمُ بها سهرتَنا يا شفق.

قالَ: ذاتَ يومٍ أرادَ رجُلٌ عجوزٌ أنْ يتزوّجَ الثّانيةَ، فذهَبَ إلى طبيبٍ وطلَبَ إليهِ أنْ يصفَ لهُ علاجاً مُنشّطاً.

قال لهُ الطّبيبُ بأنَّ علاجَهُ الوحيدَ يكمُنُ في عَملٍ جراحيّ يقومُ من خلاله باستبدَال موضعِ الإليتين لتحُلَّ اليُمنى يساراً، وتحلَّ اليسرى يميناً، وعندَهَا يمكنُهُ أَنْ يتزوّجَ الثّانيةَ، فوافَقَ الرّجلُ.

باشرَ الطبيبُ عملَهُ، وفي أثناءِ ذلكَ قفَزَتْ قطَّةٌ وفرّتْ بإحدى الإليتين.

فكّرَ الطبيبُ في حلٍ والرجُلُ ممدّدٌ تحتَ تأثيرِ البنجِ، فوقَعَ نظرُهُ على الكَلبِ، سارَعَ إليهِ وحقَنَهُ ببنجٍ، ثمّ أخذَ إليته واضَعاً إيَّاها للرجُلِ.

بعدَ التَّفرغِ من العمليَّة، قالَ: يُمكنُكَ أنْ تتزوجَ بعدَ أسبوعٍ، وبعدَ أسبوعين عليكَ أنْ تُراجعنِي حتّى أرَى النّتيجَةَ.

عادَ الرّجُلُ في ميقَاته إلى الطّبيب قائلاً بأنَّ طاقَتَهُ عَادَتْ إليه كمَا لو أنّهُ شابٌ يتزوجُ للمرّة الأولَى، ثُم قال: لَكنْ يا دكتور، عندي شَكوى وهي أنَّني كُلّما أردتُ التّبولَ وجدتُ قَدمي اليُسرى ترتفعُ.

بعد ذلك تركُوهُ في غرفَة طينيَّة حتّى ينامَ، فتمدَّدَ شفق خيو، وفجأةً وقعَ نظرُهُ على موضعٍ نافذة مُغلّقة بالطّين حديثاً، فنهَضَ من فراشه وصارَ ينزعُ الطينَ الطريّ حتّى بدَتْ لهُ جرّةٌ مملوءَةٌ بالذَّهب!

استغربَ الأمرَ وهو يرى الذّهبَ في أكثرِ بيوتِ القريةِ فقراً، وقد تعشَّوا بعضَ اللَّبنِ والشَّاي.

أفرغَ ما في الجرَّة في سُترته، ورَبطَهَا بشكل جيد، وقبلَ أنْ ينصرفَ كتبَ على ورقة: ضعُوا هذه الَجرَّةَ في مكانهَا، فإنَّهَا إنْ كانَتْ فارغةً أو مليئَةً ستستمرُّ حياتُكم

ويُقالُ أنَّ شفق خيو غادَرَ المدينةَ لأوَّل مرَّة في حياته، أمضى في العاصمَة سنتين أنفَقَ فيهما كُلَّ ما مَلكَ، كانَ يقيمُ في فنادِقَ الخَمسِ نجومٍ، يعيشُ برفاهيَّةٍ كما لو أنَّهُ أميرٌ.

لم أكُنْ راغباً في ترك شفق خيو، وقدْ حظيتُ برؤيَتِه لأوَّلِ مرَّةٍ، لكنَّ حركاته أشارَتْ لي بأنّهُ على وشكِ الانصراف.

عندئذ دنوتُ منهُ أكثر، فسمعتُهُ يقولُ لشبلي وهو يصوّبُ نظرهُ إلى بناءٍ قديمٍ مكتوبٍ على أحدِ جُدرانه بخطّ عشوائيٍ، برسمِ البيعِ.

انظر إلى هذا البناء جيداً يا شبلي، عندمَا نشتريه، سوفَ نقومُ بهدّه ونُحيلَهُ إلى قطعة أرضَ مستقيمة، بعدَهَا نبني ثلاثةَ طوابق، أنتَ تسكُنُ طابقاً، وأنا أسكنُ طابقاً، ونبيعُ الثّالثَ، أمّا حولَ البناء، فسنجعَلُهُ محلات تجاريّةٍ نبيعُها، سوفَ نشتري سيّارتين جديدتين، واحَدةٌ لكَ والأخرى لي.

عندها ستتزَوّجُ من الفتاة التي تريدُها، أو أتزوجُ من التي أريدُها، نُنجبُ أولاداً، ويُنجبونَ لنا أحَفاداً.

قال شبلي: أرّرّررّك.

استأنفَ شفق قائلاً: ليسَ أمامنَا الكثيرُ من الوقت يا شبلي، مَضى بنَا العُمرُ بسرعة، علينَا أن نُسارِعَ في هذا المشرُوعِ، هيّا نُرتّبْ أمورَنَا ونُخططُ جيداً لعملِنَا الجديدِ.

قال شبلي: أجلْ علينا أنْ نُسارعَ يا مُعلّمي قبلَ أنْ يسبقَنَا إليهِ أحدٌ.

عندئذ نهضَ شفق خيو وهو لا يكادُ يقفُ على قَدميه، بدَا أمامي كَمَا لو أنَّهُ هيكلٌ عظميٌّ وهو ينتَصبُ على قدميهِ بقامَتِهِ الطّويلَةِ الهزيلةِ التي لمْ أكُنْ أتصوّرُها بهذا الطُّولِ.

اتّكأ على عصاه، وصارَ يمدُّ خطوات واهنةً مُحدَودَبَ الظّهر، مُترنّحاً يُمنةً ويسرى، تُعينُهُ عليها العَصا التي يتكِئُ عليها، ويُعينُهُ الصَبيُّ الذي يتأبَّطُ ذراعَهُ الأخرى.

عليكِ أنْ تتبيَّـنِـي يا بِنتـي

عشرةُ أيّام متتالية من مَرارة قلق الانتظار مَضَتْ على مكينة وهي تقفُ على قَدمَيها في هذا المَوقف دونَ أنْ تَفقدَ أملَهَا في رُؤية ذاكَ الشيخ الجّلَيل التي غَدَتْ معَهُ حديثَ السَّاعَة في هذه المَدينة التي تتنَاقلُ فيها حتّى الوقائعَ الصّغيرةَ بينَ غالبيَّة السُّكان بعد ساعة من وقوعها.

شيخٌ في ثمانينيات العُمر تلقّى في باص النَّقل الدَّاخليّ صفعَةً من فتاة بعمر حفيدَته.

تقَعُ الأقاويلُ على سَمعهَا كشرارات ناريَّة في الباص، وفي الطّريق فتحرصَ كلَّ الحرص أنْ لا يعرفَ أحدٌ أنَّها صاحبَةُ الصَّفعَة.

تصعدُ منذُ عشرة أيّام متتالية في باص حيّ النبع رُغمَ أنَّها من حي آخر، وتنزُلُ في ذات الموقف الذي نزَلَ فيه الشّيخُ، تنتظرُ على قدميهَا من الثّامنَة صباحاً وحتّى الثّانيةَ ظهراً، ثمَّ ترجعُ، لتأخذَ قسْطاً من الرّاحة وتعودَ إلى ذات المكان لتقفَ من الرابعة عصراً إلى الثّامنة ليلاً علَّها تلمَحُ الشّيخَ ولو بطرفَة عين.

تنزوي في رُكن من الموقف وهي تمدّ أنظارَهَا إلى الجهة الأخرى حيثُ الموقفُ المُقابلُ الذي يؤدّي إلى سوق المدينة علّهُ يظهرُ ليَصعَدَ الباصَ، وعندمَا يقفُ الباصُ القادمُ من المدينة تنظرُ إلى النازلينَ علـّهُ يكونُ أحدَهُم.

حفظَتْ ذاكرتُها جيداً بأنَّهُ نزلَ في هذا الموقِفِ في ذاكَ الصَّباحِ الذي لنْ تنساهُ.

كانَتْ خارجةً من البيت لتذهبَ إلى بيت أختهَا يقطينة المُتزوجةُ منذُ سنتين في حيّ النبعِ التي أنَجبتْ ولداً في الشَّهرِ الماضي حتّى تقضيَ معها بضعةَ أيّامٍ تُعينُها في أمورِ البيت.

بعد نحو عشر دقائق من وقوفها وقفَ الباصُ ليهرَعَ إليه بعضُ الرُّكاب، ورغمَ تيقُّنها من عدمِ وجود مقعد فارغ تقدَّمَتْ نحوَ الباب لتصعَدَ مع الواقفينَ إلى فُسحةِ الباصِ مُتمسِّكةً بيدِها بالعمودِ المعدنيِّ المنصوبِ في الوسَط.

بعدَ قليلٍ نهضَ شابٌّ من رتلِ المقاعدِ الفرديَّةِ مُنادياِ إيَّاها: تفضَّلي.. اقعدي.

سرتْ قشعريرةُ حرجٍ في أوصالِهَا وهي تتقدَّمُ جالِسَةً في المقعدِ وتوجّهَ شُكرَها للشَّابِ.

وضعَتْ الحقيبةَ المُتوسّطةَ الحجم جوارَهَا على الأرضيَّة تاركَةً كفَّهَا على المَسك بحزمٍ وهي تذْكُرُ كيفَ أنَّها ملأَتْ علبَةً من الجُبنِ لتأخُذَهُ إلى أختهَا، ورَأَتْ أمَّهَا تملأُ عُلبةً من الخسّ المُخلَّلِ وتدسُّها في الحقَيبَةِ، ثُم أمامَ البابِ نادتْهَا: انتظرِي يا مكينة.

هرَعَتْ بسرعة لتملأ علبةً من مُربى القرع وتناولتْهَا، فقالَتْ مكينة: ما دامَ قدْ ثقُلَ الحمْلُ.. ثمَّ تقدَّمتْ إلى البراد وأفرَغَتْ صحناً من الشامبورك, وعندئذ نادَتْ أَمها: انتظري يا بنتي, خُذي معَكِ بعضَ بزرِ الجَبَسِ المسلُوقِ حتّى تتسلىّ أختُكِ بهِ.

بُغتةً أحسَّتْ أنَّ دشّاً من الماء المصقَّع تسلَّطَ على جسَدهَا من الأعلى، أخفَضَتْ رأسَهَا وهي تُغالبُ نوبَ الارتعاش البدنيّ والرُّوحيّ، لكنَّ الدشَّ ما زالَ يتكاثَفُ بدفق هائل مُزمهراً أنفاسَهَا. كمْ رغبَتْ في أنْ يكونَ ذلكَ وهمَاً، وأنَّ ما يحدُثُ مَا هو إلاَّ إحساسٌ كاذبٌ منها، فكيفَ لشخص أنْ يتجرَّأ ويَمدَّ يدهُ من أسفَل المقعَد ليداعبَ جَسدَ فتاة في وضَح النَّهار في باص النَّقل الدَّاخليّ، بيدَ أنَّ الأصَابعَ التي مَا زالَتْ مُشتعلَةً على تنُّورتهَا من القَفا أزاحَتْ احتمَالَ كُلّ وهمٍ، وأكَّدَتْ لهَا الحقيقةَ المُرَّةَ.

غَدا قلبُها يَهبطُ وكَأنَّهُ على وشَك أنْ يقفزَ من صدرهَا اصطكَّتْ رُكبتَاهَا بشدَّة، عَلاهَا اصفرارٌ حادٌ، وغدا جَسدُهَا كلُّهُ يرتَعدُ كَريشة عُلّقتْ بواجهة عَاصفَة، ولا تدري كيفَ استرجَعَتْ مشهدَ صُعودهَا إلى الباص ودَعوةَ الشّاب لهَا لتجلُسَ مكانَهُ، لا تدري كيف التقطَتْ ذاكرَتُها وجهَ شيخ مُسنٍ في نَحوَ الثَّمانين من عُمرهِ كانَ يجلسُ في مقعَده المُفرد خلفَ الشَّاب.

هَلْ يُعقَلُ أنَّ ذاكَ الشيخَ الوديعَ هو الذي يقُومُ بهذا الاعتدَاء اللاَّأخلاقيّ السّافر بحقّ فتاة كَحفيدَته في حافلَة عامَّة كهذه مُستغلاً تدفُّقَ الناس في الممرّ وامتلاء الباص حتّى الكظّة. فجأةً تَناولتْهَا نوبةُ قيء حادَّة وهي ما تزالُ تصرُّ على مُقاومَة حالَة الاستفزاز اللاَّأخلاقي التي تتعرَّضُ لهَا بالكتمان، فهي تعي ما الذي يُمكنُ أنْ تجلُبَهُ شائعةٌ كهذه في هذا المُجتمع المُحافظ على فتاة في الخامسة والعشرينَ من عُمرهَا يُمكنُ في أيّ لحظة أنْ يطرُقَ شَابٌ بابَهَا ليطلُبَها للزواج وتصبحَ سيّدةَ بيت، ويكونَ لهَا كيانٌ اجتماعيٌ مُستقلٌ كأمّها وخالاتها وعمّاتها.

أرادَتْ أنْ تقطَعَ الشكَّ باليقين فاستدارَتْ بمشقَّة لتَقعَ عينَاها على وجه الشيخ الذي ما لبثَ أن تجنّبَ التقاءَ نظرَته بنظرتهَا.

تسرَّبَتْ نظراتُها إلى لحيته الكثيفَة المُسدلةِ والشَّديدةِ البياضِ، وما يزالُ يتجنَّبُ النظرَ إليها بشكلٍ مُتَقن.

تحوَّلتْ اللّحيةُ أمامَ ناظريهَا إلى ذقن مُراهق أزعر، وانقلَبَ وقارُ الوجه العجوز إلى زندقة، وما زادَهَا سُخريَةً واشمئزازاً وهي تنظُرُ إليه أنَّ الأصابعَ ما تزالُ تَشتعلُ في قفَاهَا وتزيدُ حالةَ الانهيارِ النَّفسيّ والبدنيّ في أعماقهَا، وكأنَّ الرجُلَ يجلِسُ في مقهىً على الرَّصيفِ يتسلىَّ بحبَّاتِ مسبحَة.

لأوَّل مرَّة شعرَتْ بأنَّ سكُوتَها على هذا التَّمادي هو إذعانٌ ورضى منهَا بمَا يحدُثُ، وما دامَتْ تقبَلُ وترضىَ إلى هذه المَرحلة، فسوفَ تَبقَى في حَالَةِ تنازلٍ إلى أنْ تقبَل بمَا هو أبعدُ وهي صامتةٌ في أماكَنَ أخرى.

نَسيتْ في تلكَ اللَّحظة أنَّها فتاةٌ في الخامسة والعشرينَ على أبواب الزَّواج، نَسيتْ أنَّ الفتاةَ في هذا المُجتمعِ المُحافظِ هي بيتٌ من زجاجٍ يُقيمُ فيه أهلُهَا.

في هُنيهات خاطفة خطّطتْ للردّ السرّيعِ والحَاسمِ، ورَفعَتْ يدَهَا بكلّ ما تملكُ من خِفَّة وَقوةٍ وألقَتْ بظاهرِ كفّها صفْعةً على وجهِ الشيخِ الذي انتفَضَ من مَجلسِه وكأنَّ صاعقةً مُباَغتةً وقَعتْ عَليه.

حدَثَ ذلكَ بخفية تامة دُونَ أنْ يتحرَّكَ ساكنٌ بسبب امتلاء الممرّ بالأجساد والضّجيجِ لولا أَنَّ رجُلاً رأى ذلكَ وأشَارَ لُمجاورهِ الذي بَدورِه أشارَ لمجَاورِه حتَّى سَمِعَ الرُّكابُ جميعاً ما حدَثَ، بينمَا أخرجَ الشيخُ منديلاً قماشَيَّاً كبيراً من جيب سُترته وغدا يُجففُ الدّماءَ الغَزيرَةَ التي تَدفَّقَتْ بقُوةٍ على اللّحيةِ لتُحيلَهَا إلى قَطعَةٍ حمراءَ.

يُجففُ الدّماءَ وهو يصوّبُ نظرات قاسيَةً إلى الفتاة، ويبدُو عليه أنَّهُ يستخدمُ كُلَّ ما لديه من إمكاناتٍ حتَّى يلبَثَ كاظماً غيظَهُ وقدْ جمَدَتْ دموعٌ فيَّاضةٌ في عينيهِ.

في تلكَ اللَّحظات لا تدري كيفَ لفتَتْ حركَةٌ من أسفلِ المقعدِ نظراتَهَا فانتبَهَتْ لتَقعَ على يدي طفلَةٍ.

مالَتْ برأسها إلى حيثُ مقعدُ الشيّخ، وإذْ بطفلة لا تكادُ تقفُ على قدميهَا في حُضنِ الشَّيخِ وهي ما تزالُ تعبثُ بأصابعِهَا في ذاتِ الموضِعِ.

هَالَهَا ما رأتْهُ، وأدركَتْ أنَّها لم تعُدْ قادرةً أنْ تصحّحَ الموقفَ بردّ مُباشر كما فعلَتْ أوَّلَ الأمرِ، والشيخُ ما يزالُ يحدقُها بنظراتٍ قاسيةٍ ويلصقُ المنديلَ على فمه.

أمعَنَتْ مكينة النَّظرَ في الطّفلةِ حتّى يصلَ الإيماءُ إلى الشَّيخِ عن حجمِ سوءِ الفهمِ الذي وقعَ.

في تلكَ الهُنيهة تدخَّلَ رجلٌ في خَمسينيات العُمر ليوجّهَ توبيخَاً للفتاة التي ارتكَبتْ هذا الاعتداءَ، بيدَ أنَّ الشَّيخَ رفَعَ كَفَّهُ مانِعاً إيَّاهُ من لفظِ عبارةٍ واحدةٍ بحقّها.

جمَدَتْ مكينة واقفةً دونَ أن تجسرَ على قولِ كلمة، أو حتّى الاعتذارِ بالإشارة إلى أنْ نزَلَ الشّيخُ في موقف منزله وهو يحملُ الطّفلةَ بيد، ويُخفي فمَهُ ولحيَتَهُ بقطعةِ القماشِ باليدِ الأخرى، نزَلَ دونَ أنْ يلفظَ بكلمةٍ واحدةٍ.

بدَتْ الدّقائقُ القليلَةُ ريثما تنزلُ من الباص وكأنَّها ساعاتٌ، وعندَمَا دنَا من الموقف الذي ستنزلُ به، أرادَتْ أن تهتفَ للسَّائق: على مهلك. بيدَ أنَّ الصَّوتَ لَم يسْعِفها، فأدرَكَ الرُّكابُ الذين يحدجونها بنظراتٍ مُزدريَةٍ أنَّها

سوفَ تنزلُ في الموقف القادمِ، ولا تدري منْ أينَ علا صوتٌ رجوليٌ: على مهلِكَ حتّى تنزلَ الآنسةُ.

عند ذاكَ أرادَتْ أن تمُدّ يدها اليمنى التي صفَعَتْ بها الشَّيخَ، إلا أنَّ اليدَ لمْ تستجبْ، فأدركَتْ الخَسارةَ الثَّانيةَ التي مُنيتْ بها، وما لبثَتْ أنْ مدَّتْ يدَها اليُسرى لتحملَ الحقيبةَ وتنزلَ مُتجهةً على الفورِ إلى بيتِ أختِهَا.

دقّتْ البابَ مُنهكةَ القوى وكأنَّها سارَتْ ألفَ ميلٍ على قدمَيها، فتَحتْ يقطينة البابَ واستقبَلَتْهَا بقبلات حارة، إلاَّ أنَّها جمدَتْ عندما رأتْ أختَها بِكلّ تلكَ المعنوياتِ المُنهارةِ والدُّموعُ تجري من عينيهَا كأنَّها لن تقفَ.

قالتْ بذهولٍ: خير إنشاءَ الله يا مكينة.

استجمَعَتْ قواها لتردَّ ولو بكلمَة واحدة، غير أنَّها لم تفلحْ، فقادَتْها أختُها لتجلسَ، ثم هرَعَتْ تحضرُ لها كأسً ماءٍ، تناولتْهَا مكينة بيدِها اليسرى وجرَعَتْ نصفَهَا.

بعد لحظات ارتجفَ جسدُهَا بشدَّة فتمدَّدتْ على إسفنجةٍ في صالونِ الاستقبالِ تتكوَّرُ بثيابِها وكأنَّها أرنبٌ.

تضاعفَ ذعرُ الأختِ على أختها فهرولَتْ حاملَةً بطانيةً تغطّيهَا.

كان جسدُها ساخناً للغايَة ويكادُ يتعرّقُ، والشّهرُ هو منتصفُ آذار، والشّمسُ تسطعُ بقوةَ في حينَ يوحي منظَرُهَا بأنّها تتمددُ وسطَ زمهرير، فراحَتْ تجلُبُ بطانيَّةً أخرى وتُغطيهَا، ثمَّ أغلقَتْ النّوافذَ وأشغلَتْ /الصوفاج/ لترتفعَ درجةُ الحرارةِ في الشّقةِ الأرضيّةِ المُغلقةِ.

غارَتْ مكينة في نوم عميق بعدَ أن أحسَّتْ بشيء من دفء، فرنَّ جرسُ الهاتف، رفعَتْ يقطينَة السَّماعةَ بسرعَةٍ فتنَاهتْ نبراتُ أمَّها: كيفك يا بنتي؟

- مشتاقة لكِ ولأبي يا أمي.

- هــه.. هل وصلتْ مكينة؟

تلعثَمتْ بالإجابَةِ قليلاً، لكنَّها سارعَتْ لتقولَ بحسمٍ:

أجلْ يا أمّي وصلتْ.

قالت: لا شيء يا بنتي، فقطْ أردتُ أنْ أطمئنَّ على وصولِ أختكِ.

- شكراً يا أمي.

- قبـّلــي آمــد قبلتين، واحدةٌ مني، والأخرى من جدّهِ.

بعدَ عدة أيام يا بنتي سيكونُ البردُ قد خفَّ، وستأتينَ مع أختكِ لقضاءِ عشرةِ أيامٍ عندنَا.

- إن شاءَ اللهُ يا أمـــي.

- أمازالَ ديار يعاملُكِ بلطفٍ؟

اعتراها إحساسٌ بالخجل، وابتسمَتْ لتردفَ الأمُّ: إنَّه ابن حلال.. إيَّاك والخروجُ عن طاعتهِ يا بنتَي، لا تجادليهِ كثيراً حتى لا يضجَرَ منكِ، إنّهُ سيدكِ، وسيّدُ ابنكِ، وسيد بيتكِ.

إذا نظرتِ إليهِ هذه النّظرةَ، سوفَ يبادلُكِ إيّاها فتكونينَ سيدتهُ، وسيدةَ ابنهِ، وسيدة بيتهِ.

تكونُ المرأةُ زوجةً مُحترمةً في المجتمعِ بمقدارِ ما يكونُ زوجُهَا رجلاً محترماً.

عندما يدخُلُ الرجلُ بيتاً ويَلقى الاحترامَ والترّحابَ من الرجالِ، فإنَّ زوجتَهُ أيضاً سوفَ تَلقَى الاحترامَ والترحابَ من نساءِ ذاكَ البيتِ.

- سوفَ أبقى مُحتاجةً إلى نُصحكِ يا أمّي.

- وفَّقكِ الله في بيتكِ يا بنتي يا أمّ آمـــد.

أقفلَتْ السّماعةَ وغدَتْ شاردَةَ البالِ في حالِ أختِهَا، بيدَ أنَّ نشيج آمد الخافتِ جعلَها تهرعُ إليهِ.

رفعَتْ الطفلَ إلى صدرها، ووضعتْ حلمةَ الثدي في فمه وعادتْ إلى الشرُّود: ماذا حدثَ لكِ يا مكينة، حديثُ أمي يُؤكدُ أنَّها خَرَجَتْ بعافيةٍ حتى تقَضيِ أيّاماً معي.

لقد وقعَ لكِ مكروهٌ في الطّريقِ إليّ يا مكينة، لكنْ ما هو هذا المكروهُ؟!

انتبهَتْ إلى أنَّهُ عاد للنومِ، فأعادتْهُ إلى الهزّازةِ واتجهَتْ إلى المطبخِ لتُحضرّ الغداءَ.

تذكَّرتْ الحقيبةَ التي حملَتْهَا مكينة، فتناولتْهَا وأدخلتْها إلى المطبخِ.

خططتْ أن تضعَ الشامبورك في الـ / مكرويف / في الثالثةِ والنصف لأنَّ زوجهَا سيكونُ في البيتِ في نحو الرابعةِ.

قبلَ ذلك سوفَ تصنعُ الحساءَ، ثم الفاصولياء المنقوعةَ منذُ ليلة البارحةِ في الماء، ثم تصنعُ الرزّ، وتتفرّغُ لطهي الأرنبِ التي أحضرَها ديارٌ من سوقِ الحمامِ، وبعد ذلكَ تحمّصُها في الفرن.

اعتادَ ديار أنْ ينزلَ بينَ فترة وأخرى في صَبيحة يوم الجُمعة إلى سوق الحمام حيثُ يجلبُ القرويّونَ الدّجاجَ البلديّ، والدَّيوكَ، والأوزَّ، والبطَّ، وديوكَ الحبش، والأرانب، والحمامَ، والبلابلَ إلى هذا السوقِ في تجمّعٍ لهذهِ الحيواناتِ التي لا تتوفّرُ إلاّ صبيحةَ يومِ الجمعةِ من الأسبوعِ.

إنّهم يستغلّونَ هذا الوقتَ بسببِ العطلةِ الرّسميّةِ والأهليّة، وإغلاقِ أبوابِ الدّكاكين، وهو سوقٌ غائرٌ في القدم، وقد فتحَ باباً للرزقِ لبعضِ أهالي المدينَةِ الذين يُمكنُ تسميتُهُم بـ التُّجارِ الصّغار، فهؤلاء يغتنمُونَ عجلةَ بعضِ القرويينَ الذين يكونُون في عجلةٍ من أمرهِم ليبتاعُوا منهُم ما جلبُوا للبيعِ، ثمّ يبيعونَهُ بأسعارٍ مُرتفعَةٍ، لذلكَ يَحضرُونَ مع طلوعِ الضّوء في بعضِ المُفترقَاتِ التي تؤدّي إلى السّوق حتى يلتَقطُوا القرويينَ ويشترُوا منهُم ما جلبُوا.

عند ذاك يأتُون بهذه البضاعَةِ إلى السّوق ويعرضُونَها بأسعارٍ مُرتفعة، ويُمكنُ أن يتشدّدُوا في الأسعَارِ لأنّ لا مُشكلةَ لديهم إنْ أخذُوا هذا الرّزقَ إلى البيت، فهناكَ يمكنُ للجوارِ أنْ يشترُوا، كما يُمكنُ لبعضِ الذين اعتادُوا على شراءِ هذه الطّيورِ والأرانب أنْ يطرقُوا عليهِم الأبوابَ في أيّ وقتٍ، لأنّهم تحوّلُوا معَ السّنواتِ إلى زُبنٍ دائمين.

من ناحيةٍ أخرى فتَحَ هذا السُّوق باباً للرزقِ لبعضِ العاطلينَ عن العملِ الذين لا يملكُونَ السّيولةَ، وهؤلاء يمكنُ تسميتُهم بـ الدلاَّلين الصّغار، فهُمَ يتناولُونَ هذه البضاعَةَ من أيدي القرويّين ويبيعُونَها لهم لقاءَ مبلغٍ بسيط، إنَّهم يتولُّون مهمّةَ التّفاوضِ لبيعهَا بأسعارٍ جيدة. وبابُ الرزقِ الثالثُ انفتحَ من هذا السُّوق على بعضِ أَصحابِ محلاَّت بيعِ الفرُّوجِ في المدينة، فهم يحضرُونَ مبكّراً ليشترُوا ديوكَ الحبشِ والدجاجِ البلديّ وعَرضِها للبيعِ بعد ذلك على أرصفةِ محلاَّتهم.

وهناكَ فرصةُ ربحٍ أخرى أمامَ بعضِ تُجّار الحمامِ الذين يحضرُون مبكراً ليشترُوا أنواعاً من الحمامِ ويبيعُونَها إلى هواةِ تربيةِ الحمامِ في الأحياءِ الشّعبيّةِ، وكذلك بالنسبةِ للبلابلِ والزرازيرِ، وبيعِ الأقفاصِ المُزخرفةِ.

عند السّاعة الثالثة والنّصف خرجَتْ من المطبخ بعدَ أن وضعتْ اللّمساتَ الأخيرَة على وَجبة الغداءَ. تقدّمتْ إلى أختهَا، فرأتْها لا تكادُ تفتحُ عينيهَا، وفي تلك اللّحظة تناهَى صوتُ الباب، ودَخلَ ديار الذي لَهُ علمٌ مُسبقٌ بحضورِ مكينة قائلاً: مرحباً بضيفتنا العزيزة.

عندما رآهَا في تلكَ الحال وهي تسعى ببطء لتجلُسَ، خفَتَ صوتَهُ فصوّبَتْ يقطينة إليهِ نظرةً عَرفَ من خلالها أنَّها مُتعبةٌ.

دخلَ غرفَةَ النَّوم يبدّل ثيابَهُ، فلحقَتْ به زوجتُهُ وهي تتحدّثُ بصوت خافت وعبارات جافّة متقطّعة: لا أعرفُ مَا حلّ بها، جاءَتْ منذُ الصّباحِ وهي مُرهقةٌ، لا تتحدثُ بكلمةٍ واحدةَ، لا تحرّكُ ذراعَها الأيمنَ، اتّصلَتْ أمي، فلمْ أخبرهَا بشيءٍ حتّى لا تقلقَ.

هزّ ديار رأسَهُ وتمدّدَ قليلاً ليستريحَ، ثمَّ بعدَ قليل خرجَ ليرى زوجتَهُ وأختَهَا تنتظرانه في المطبخ على مائدة الغداء، قالَ وهوَ يأكُلُ: اليومَ وقعتْ حادثةٌ غريبةٌ في بَاصِ حيّ النبعِ. قالتْ زوجتُه: ما هي؟

قال: شيخٌ مسنٌّ تحرَّشَ بصبيّةٍ فصَفعتهُ على وجههِ أمامَ الرُّكابِ.

مضَتْ عشرةُ أيَّام دونَ أنْ تستطيعَ مكينة نُطقَ كلمة واحدة، أو تُحرّكَ ذراعَهَا قيدَ شعرة. ويبدُو أنَّ أمَّها أحسَّتْ بأمر غير طَبيعيّ، فهي كُلما أرادَتْ أنْ تتحدَّثَ مع ابنتها وجدَتْ أختُها عُذراً، فهيَ إمّا نائمةٌ، أو تجلي الأواني، أوعلى سجّادة الصّلاة، أو غارقةٌ في المطبخِ تحضرُ الغَداءَ.

بعدَ خمسة أيّام أخرى عندَ الصّباح اتّجهتْ إلى بيت ابنتهَا لتسمعَ بعضَ الرُّكابِ يتهامَسُونَ عن فتاة صفَعتْ شَيخاً مُسناً في هذا البَاصِ.

دخلَتْ بيتَ ابنتها وعلى الفور اتّجهَتْ إلى مكينة، فسبقتْها يقطينة قائلَةً: إنّها مُصابةٌ بـــ (الكريب) يا أمّي.. لا يخرُجُ صوتُها.

وحرصَتْ الأختانِ على ألاّ تلمَحَ الأمُّ عاهةَ الذّراعِ.

عند العصرِ عادَتْ الأمُّ إلى بيتها وخطرَ لمكينة أنْ تلتقي الشيخَ: أجلْ يا مكينة كنت قاسيةً بحقّه، علّ غضبَهُ سببٌ في ما أنت عليه، اذهبي إليه واطلُبي الصّفحَ، قبـّلي يديه، وأذرفي دموعَ النّدمِ في حضرَتِه لعلّهُ يرأفُ ويصفَحُ عنكِ فتعودي كمَا كنتِ.

في صبيحة اليوم التالي، لم تجد مكينة غير أنْ تُخبرَ أختَهَا كتابياً بكلّ ما حدثَ لهَا، وطَلَبتْ أنْ تدعَ الأمرَ طيَّ الكتمانِ، وتعينَها على القرارِ الذي اتخذتْهُ.

وافقتْها أختُها على القرارِ، وشجعتْهَا عليهِ، فخرجَتْ تقفُ في الموقفِ علـّها تجدُهُ.

في اليوم الثالث عشر، وعند السّاعة الخامسة مساءً وقعَتْ عيناهَا على الشّيخِ وكأنَّهُ ملاكٌ أتَى من عالَمِ الغيبِ.

هبطَ قلبُها، ارتعدتْ أوصالُهَا وهي تنظُرُ إليهِ وتتذكّرُ كلّ تلكَ التّفاصيلِ في الباصِ.

تقدّمَ نحو الموقفِ المُقابلِ متّكئاً على عصاه، فهرولَتْ لتسبقَهُ إلى الموقفِ.

عندما وقفَ الرجلُ على الرّصيفِ والتقَتْ عيناهُ بعينيها، تسمّرتْ ملامحُهُ في وجههِ واستدارَ عائداً من حَيثُ أتى.

تعقبتْهُ مكينة من بعيدٍ وقدْ أدركَتْ أنّهُ عرفَها، ولا يرغبُ في رُؤيتِها.

مضى الرّجلُ وهي تتعقبُهُ إلى أنْ دخلَ بيتاً دونَ أن يلتفتَ خلفَهُ، عندئذ وقفتْ مكينة بضعَ دقائق حتّى عزمَت على العودة غداً، فهو الآن يتذكّرُ الموقفَ، وقد يكونُ في وضعٍ غيرِ مُلائمٍ لمواجَهةٍ كهذَه.

عادَتْ بها خطواتُها وهي تشعرُ بظفر، دخلَتْ على أختها بشوشةَ المُحيّا تكادُ ترقصُ سعادةً، احتضنَتْها وغدَتْ تُقبّلُها، ثمَّ راحتْ تحملُ الطفلَ.

- هل رأيتِ الشّيخَ يا مكينة؟

هزّت رأسَها بالإيجابِ، ثم اتجهَتْ نحو البرّادِ، قشرّتْ موزةً، وغدَتْ تتلذّذُ بتناولِها.

قالت يقطينة: ماذا حدَثَ؟

أشارتْ بأنّها سوفَ تلتقيهِ غداً.

لبثتْ ساهرةً إلى الصّباحِ وهي تُخططُ بدقّة لهذا اللّقاء، وقرّرتّ أنْ تدخلَ بيتَهُ عندما يخرجُ لصلاةِ الظُّهر في الجامعِ المجاور.

سوفَ يعودُ من الصّلاة هادئاً مُستكيناً، وسوفَ يرَاها في بيته تذرفُ دموعَ النّدمِ على ما اقترَفَتْ، سوفَ تُبلغَهُ بقوّةِ الإيماءِ بأنَّها منذ ذلَكَ اليومِ فقدَتْ النّطقَ، وفقدَتْ ذراعَها.

عندمَا بلغَتْ السّاعةُ العاشرةَ والنصف صباحاً، خرجَتْ مكينة تمشي حتّى وصلَتْ إلى مدخلِ الشّارعِ الذي يسكنُه الشيخُ.

انتَظرتْ حتى رأتْهُ يخرجُ من ذات الباب مع نداء الآذان. عند ذاك تقدّمتْ بها خطواتُها نحو البابِ، وقفَتْ قليلاً، ثمَّ مَا لبثتْ أنْ رفعَتْ سبّابتَهَا وضغَطتْ على زرّ الجرسِ.

بعد نحو دقيقتين تراءَتْ لها امرأةٌ عجوزٌ فأشارَتْ لها مكينة بأنَّها تُريدُ أن تدخُلَ.

دعتْها العجوزُ بترحابٍ.

مدّتْ خطواتَها إلى الدّاخل وهي تنظرُ إلى الغُرفِ الثلاثِ المُلاصقَةِ لبعضِهَا.

أشارَتْ العجوزُ لتدخلَ إلى إحدى الغُرف المُعدّة لاستقبال الضّيوف، عندئذٍ وقعَ بصرُها على تلكَ الطّفلةِ التي تسبّبَتْ بكلّ ما وقعَ لَها وللشيخِ.

كانَتْ تمشي بضعَ خطواتٍ داخلَ الغرفةِ، وتقعُ لتعاودَ المشي.

قالت العجوزُ: هذه مرضيّة، ابنةُ ابننَا الأصغرِ الذي يسكُن في البيتِ الذي يلينَا، تعلقَتْ بجدّها ولا تُفارقُهُ، أحياناً عندمَا ينزلُ إلى المدينةِ، تبكي فيضطرُّ أنْ يأخذَهَا معهُ.

حملتْها مكينة وغدتْ تُقبلهَا. تركتْها العجوزُ وغابَتْ قليلاً، ثم عادَتْ تحملُ إبريقَاً من الشّاي، تناولَتْ مكينة الشّاي وهي تترقّبُ عودَةَ الشيخِ في أيّ لحظةٍ، وتستعدُّ لذلك.

بعد قليلٍ تناهى صوتُهُ وهو يلِجُ فناءَ الدارِ، فقالَتْ العجوزُ: لدينا ضيفةٌ يا شيخ مقدسـي.

دنَا بخطواتهِ وصوتُهُ يتقدّمُهُ: يا مرحباً.. يا مرحباً.

وقفتْ مكينة على قدميها للقاء الشيخِ الذي دَخلَ، وما أنْ رآهَا حتّى خفتتْ نبراتُ صوتهِ، بيدَ أنّهُ عادَ يَقولُ: على الرّحبِ.. على الرحبِ.. تفضّلي يا بنتي.

في تلك اللّحظات غدت مكينة لأوّل مرّة تشعرُ بمعنى أنْ يكونَ الإنسانُ طيّباً، أنْ يكونَ مُتَسامحاً، أنْ يكونَ حَكيماً.

غارَتْ عيناهَا بدموعٍ غزيرةٍ وهي تنظُرُ إلى نورِ الإنسانِ في مُحيّاه.

عندما عرفَ الشيخُ بأن ذراعَهَا مشلولةٌ وأنّها فقدَتْ النطقَ منذ تلكَ الصبيحة، انهمَرتْ دموعٌ من عينيهِ ثم هزّ رأسهُ قائلاً: عليكَ أن تتبيّــني يا بنتــي.

ازدادَ بكاءُ مكينة ووقعَتْ على يديه تقبلهُما معبرّةً عن شدّة ندمها على سُوءِ الفهمِ الذي تسبّبَ لها ولهُ بما وقَعَ، عندئذٍ تناهَى إلى سمعِهَا صَوتُه:

لقد عفوتُ عنكِ يا بنتي

لقد عفوتُ عنك يا بنتي

لقد عفوت عنك يا بنتي

تقعُ الكلماتُ على سمعهَا وهي تشعُرُ أنّ كلّ حرف من تلكَ الكلمات تزيحُ جَبلاً من الألمِ والاضطرابِ من أعماقِها لتشعرَ شيئاً فشيئاً بحالةٍ من الصفاءِ.

وعندمَا انتهى الشّيخ، أحسّتْ بقشعريرة ساخنة تسري في ذراعها الأيمن، حرّكتْ الذراعَ، ثمّ ما لبثتْ أنْ أحسّتْ بكلماتٍ تجري على لسانَهَا وكأنَّ رذاذاً بدأ ينهمرُ على أرضٍ جافّة، فلمْ تملك إلاّ أنْ تهتفَ: باركَكَ اللهُ يا شيخي على سعةِ عفوكَ.

ثمَّ تراجعَتْ بها قدماهَا نحو الوراء إلى أنْ خرجَتْ إلى الشّارعِ وكأنّها ولدتْ للتوّ، تنظرُ إلى النّاس، إلى الطّرقَات، إلى كلّ لون من ألوانَ الحياة نظَرات جديدة لم يكن لهَا عَهدٌ بها. تدفّقَ حنينٌ هائلٌ بين حنايَاهَا لبيتهَا الذي شَعرَتْ بأنّها غابَتْ عنهُ دهراً. مدّتْ خطواتَها الأولى نحو البيت مُصممةً أنْ تمضي المسافَةَ كلّهَا سيراً على القدمين وهي ترسمُ معالمَ حياتها الانتقاليَّة الجديدة مُستضيئةً بدلالاتِ عبارةِ الشيخ: عليكِ أنْ تَتبيّنِي يا بنتِي.

مدارُ اللّسان

مضَتْ سنةٌ بشهورِهَا، وأسابيعِهَا، وأيّامِها، وساعاتِها، سنةٌ بكامل تفاصيلِ ووقائعِ الحياةِ والاحتكاكِ مع الآخرين دونَ أَنْ ينطُقَ لسانُهُ بحرفٍ واحدٍ.

سنةُ حياةٍ انتقاليّةٍ رحبةٍ، حافلةٍ بهيبةِ وقارِ الصّمتِ، غنيّةٍ بحكمةِ الإصغاءِ، خصبةٍ بعذُوبةِ التأَمُّلِ.

سنةٌ مجيدةٌ شقّتْ أمامَهُ آفاقَ تحول أكبر شطر بهاء حياةٍ جديدةٍ يدركُ معالِمَهَا أولَ وهلةٍ.

في دجى اللّيلِ انسحَبَ من فراشِهِ بهدوءٍ تامّ تاركاً زوجتَهُ وابنَهُ الرّضيعَ /أبي/ في الفراشِ.

مدّ خطواتَهُ بحذرٍ صوّبَ غرفةَ الأولادِ حتّى لا تستفيقَ زوجتُهُ من النّومِ وتلحَقَ بهِ كعادَتِها.

تأمّلَ هيبةَ الصّمتِ في عمقِ اللّيلِ، تقدّمَ خطواتٍ شطرَ النّافذةِ، أزاحَ عنها السّتارَ ليتراءى ظَلامٌ دامسٌ في الخارجِ.

عادَ نحو غرفةِ نومِ الأولادِ، تسمَّرتْ بهِ قدمَاهُ أمامَ البابِ ككُلّ ليلةٍ.

بعد قليلٍ مدّ كفَّه المُرتجفَةَ إلى المِقبضِ وولَجَ الغُرفةَ المكسوّةَ بضوءٍ أزرَق خافتٍ.

جلسَ يجولُ بنظرهِ إلى فلذاتِ كبدهِ. /ماسة/ ابنتُهُ السّمراء ذاتِ السنواتِ الستّ تغورُ في نومٍ عميقٍ إلى جانبِ أختهَا /آلاء/ ذاتِ العشرين سنةً، في النّصفِ الآخرِ من الحجرةِ يتمدّدُ ابنهُ /آراس/ ذو السنواتِ التسعِ.

عندئذٍ علَتْ حنجرتَهُ غصّةٌ جافّةٌ وهو يجولُ بنظرهِ إلى مساحَةِ الفراغِ التي كانَتْ مُخصصةً لفراشِ ابنهِ الأولِ /بهاء/ ذي السّنواتِ الخمسِ عشرةَ.

فاضَتْ عيناهُ بدموعٍ غزيرةٍ وهو يُغالبُ الغصّةَ التي تَحجّرتْ في حنجرَتهِ، وكالعادةِ أفاقَتْ زوجتُهُ على نشيجِ /أبي/، وضَعتْ حُلمةَ ثديهَا في فمهِ، ونهَضَتْ حاملَةً إيّاه مُتجهةً إلى غرفَةِ نومِ الأولادِ.

جلَستْ بجانبهِ وهي تنظُرُ برهبةٍ إلى موضعِ ابنهَا الفارغِ، ثمّ صدَرَ منها نشيجٌ خافتٌ، وغدَتْ تمسَحُ دموعاً تنزلُ من عينيهَا.

عندمَا غفَا ابنُها، وضعَتْهُ على الأرضِ، ثمّ نهضَتْ تُغطّي أولادَهَا بشكلٍ جيدٍ وعادَتْ تحملُ رضيعَها وهي تهتِفُ بنبرةٍ مُحتقنةٍ: البردُ قارسٌ ياً بزمٍ، لا أحدَ لنا غيرُكَ يا عمودَ البيتِ.

نهضَ بزم وخرجَ مع زوجَتهِ، وعادَا إلى غرفَةِ نومهما.

كانَتْ السّاعةُ عند ذاكَ قد بلغَتْ الثالثةَ والنصف ليلاً.

تمدّدَ في فراشهِ وهو لا يدري كيفَ ومتى غَفَا عندمَا أيقظتْهُ زوجتُهُ في السّابعةِ صباحاً حتى ينهضَ ويتهيّأ للذهابِ إلى وظيفَتهِ بباصِ الدّائرةِ الذي سيقفُ أمامَ بابِ البيتِ بعدَ نصفِ ساعةٍ، وإنْ لم يجدْهُ سائقُ الباصِ /قدري/ أمامَ البابِ سوفَ يستخدِمُ المنبهَ المرتفِعَ الصوتِ، ويزعِجَ

الجيرانَ في تلكَ السّاعةِ الباكرةِ، ولذلك تقولُ زوجتُهُ: أسرِع يا بزم قبلَ أنْ يصلَ /الدُبّ/.

بعدَ إطلاقِ المُنبه بصوتٍ مرتفعٍ، يقذفُ/قدري/ جسدَهُ بسرعة ويضغَطُ على زرِ جرَسِ البابِ، ولا يرفَعُ إصبعَهُ حتّى تقعَ حدقتَاهُ على هيئة بزم، وكعادَتها سوف تَدخُل جارتُها /سُجى/ تُعاتبُها بشدّة لأنّ منبّهَ الباصِ أزعجَهَا وأيقَظَها من لفائفِ نومٍ عميقٍ، وجعلَ أطفالَها الصّغارَ ينتفَضُونَ من النّومِ كالمصعوقين.

تقولُ لها معاتبةً: الدُّنيا لا تخربُ إذا أفاقَ جارنَا بزم -عافاهُ الله- قبلَ دقيقتين.

كلُّ هذه المشاهدِ التي اندفَعتْ إلى ذَاكرتِه، جعلَتْهُ يُسارعُ في النّهوضِ من الفراشِ.

تَهرولَتْ به خطواتُهُ صوبَ المرحاض، بعدَ قليلٍ خرجَ واتّجهَ إلى المغسلة، مدَّ يدَهُ إلى قطعة الصّابون، وبدأ يَغسلُ يديه، عندئذ تسرّبتْ منهُ نَظرةٌ إلَى المرآة، توقّفَ عَن غسل يدَيه، وراحَ يتلمّسُ ذقنَهُ مُحاولاً التّذكرَ إنْ كانَ قدْ حلَقَ ذقنَهُ صباحَ البَارحَةِ أم لا، لأنَّهُ اعتادَ أنْ يحلقَ ذقنَهُ كلّ يومين.

صفّقَ بكفيه حتى وصلَتْ زوجتُه مسرعةً، فأدركَتْ أنّهُ يريدُ معرفةَ إنْ كانَ قد حلَقَ ذَقنَهُ صباحَ البارِحةِ أمْ لا؟ هزّتْ رأسَها نحو الأسفلِ وهي تقولُ بثقة: لا يا رُوحي.

ألقَى نظرةً إلى رحابَةِ وجهها المُشرق، وكأنّهُ يكتشفُ فيه لمسَات جماليّة للتوّ، أحسَّ بأنَّ الوجهَ مَدّ قلبَهُ بطاقةٍ من الانتعاش، ابتسَمَ وهو مَا يزالُ ينظُرُ كأنّهُ يريدُ أنْ يأخُذَ المزيدَ من جرعاتِ الانتعاشِ.

همسَ في نفسهِ: كمْ هو محظوظٌ الرجلُ الذي يحظَى بامرأةٍ طيّبةٍ كهذهِ.

ثمّ كرّرَ ذاتَ الجُملةِ التي يُكررهَا لنفسهِ دائماً: إنّها المرأةُ التي اختارَها اللهُ لي.

دنَا منها وطبَعَ قبلةً على جماليَّةِ الخدّ.

بادلتْهُ هي الأخرى القبلةَ متمتمةً: كنتُ أحضرُ الفطورَ على قلقٍ قبلَ أن يصلَ /الدبُّ/ ويجلُدَ أسماعَ الجيرانِ بصوتِ زمُّورهِ المزعجِ .

عادَتْ إلى المَطبخِ مُسرعةً، وقبلَ أنْ تصلَ إلى العَتبةِ صدَرَ نشيجُ /أبي/. هرولَتْ إليه، حمَلَتْهُ بيد وعادَتْ إلى المطبَخِ مادّةً يدَها الأخرى إلى ركوة القهوة حتّى تسخّنَ فيها الماءَ الذي يحلُقُ به زوجُها ذقنَهُ، عندئذ لفتَ إبريقُ الشّاي -الذي بدأ يُصدر تنبيهَ الغليان- سمعَهَا ونظَرَها، وقبلَ أن تزوّدَ الإبريقَ بالشّاي، سكبَتْ منهُ في الرّكَوة، وسارعَتْ نحو المغسلةِ. صبّتْ الماءَ في كأسِ عدّةِ الحلاقة، وعادَتْ ثانيةً إلى المطبخِ.

مرّغَ فرشاةَ الحلاقَة بقطعة الصّابون لأنّهُ اعتادَ أن يستخدمَ الصّابونَ بدلَ معجونِ الحلاقة، ويستخدِمَ مكنةَ الحلاقَة البلاستيكيّةَ حتى يَرى الصّدأ عليها، ويتحسسَ بأنّها باتَتْ تقلعُ الشّعرَ من ذقنه بدَلَ الحلاقة، عندها فقطْ يستبدلُها بواحدةٍ جديدةٍ، حتّى يوفّرَ قليلاً منَ الإنفاقِ.

فرغَ من حلاقَة ذقنه بشيء من العجلَةِ، وعادَ يجلسُ في الصّالونِ بجانبِ مدفأة المازوتِ القَديمةِ يُدفئُ يديه.

دخلَتْ زوجتُهُ حاملةً سفرةَ الفُطورِ، وعادَتْ على عجلٍ لتجلُبَ ابنَها الذي يبكي في المطبخ.

أحّس بشهيّة لتناول الشّاي السّاخن مع الجُبن، والباذنجَانُ المُكدسُ، ودبس التّمر السائل، والزيتون، والزعتر، ورغيف الخبز الذي قمّرتْهُ /ريماس/ بواسطة شوّاية الـ /ماريا/ .

وضعَ لقمةَ جبن في فمه، ثمّ رشفَ رشفةً من الشّاي السّاخن مُستمتعاً بنكهة الطّعم اللذيذ ومُتذكراً في الوقت عينه كيفَ أنهُ كلَّ سنة في شهر نيسان يذهبُ إلى دكان جارِهِ /حنون/ الذي يبيعُ الجُبن القادمَ إليه من القرى والأرياف.

يتركُ بزم أوانيَهُ الفارغَةَ في الدّكان ريثما يؤمّنُ لهُ /حنون/ طلَبَهُ من الجُبن المُمتاز والمكفُول مثل كل سنة.

بعدَ نحو يومين يتّصلُ به جارُهُ في السّادسة صباحاً وهو يخبرُهُ بأنّ مونتَهُ من الجُبن جاهزَةٌ بانتظاره، وعليه الإسراعُ قبلَ أنْ يدخُلَ أحدٌ /الأحباب/ ويحرجَهُ بشرائه، لأن منظَرَ الجبن الناصع البياض والموضوع في الأواني يجعَلُ الزبائنَ يصرّونَ عليه بالذات دونَ غيره، ويسببونَ لهُ إحراجاً شديداً لأنّهم قدْ لا يصدقُوا بأنّهُ مباعٌ، أو أنّه فضّلَ عليهم زبوناً آخر.

وقبلَ أن يُغلقَ السّماعةَ يشددُ في القول: رجائي أستاذ بزم اعفني من إحراجِ زبائني وأحبابي.

يطلعُ من البيت على الفور ببيجامة النّوم حاملاً قيمةَ الجبن، يتقدّمُ من بابِ الدُّكانِ الشعبيّ تسبقُهُ نظراتُهُ إلى الناسِ الذين يتدافعُونَ إلى الباب.

نسوةٌ قادماتٌ من قرى بعيدة وقريبة يحضرُنَ بواسطة سيارات قرويّة قديمة مُكتظة بالوحل، يُنزلْنَ أواني الجُبن، فيهرعَ إليهُن الزبنُ، يتقدمُ حنون، يحملُ الأواني ويضعُها في كفّة الميزان، ثم يُسجلُ وزنها على عجلٍ في دفترِ الحساباتِ، وينتقلُ إلى غيرها مُنهمكاً وسطَ أصواتِ الزُّبن

الذين يصرُّونَ على شراء أوانٍ بعينها دونَ الأخرى، فيضطرُّ أن يقولَ بأنّها مُباعةٌ مسبقاً، أو أنَّها توَصيةٌ خاصّةٌ.

يصل بزم إلى باب الدكان وهو ينظرُ إلى النّاس يتدافعُون للحصول على الجُبن الممتاز المتماسك، بينما يضعُ حنون القطَعَ الرديئةَ والمفتتةَ والدَّاكنةَ اللونِ على منَصة حتَى يبيعَها فيما بعدْ إلَى أصحابِ المخابزِ التي تبيعُ المناقيشَ كوجباتٍ سريعةٍ.

عندمَا تقعُ عينَا حنون على بزم، يصرخُ في ابنِه الذي يُساعدهُ في الدكان: جبنُ الأستاذ بزم يا ولدْ بسرعةٍ.

يجرُّ الصبيُّ الأواني المكتوب اسمُه عليها بواسطة قلم /الشنيار/ بخفّةٍ وسرعةٍ إلى الخارجِ، يضعُها على الرّصيف بعيداً عنَ الأقدامِ.

عندئذ يستعينُ بأحد الصّبية حتّى يُساعدَهُ في حمْل الأواني إلى البيت، وعندمَا يفرغُ الصبيّ من المهمّة، يُعطيه ورقةً نقديّةً، يتناولُهَا الصبيُّ الذي يكونُ أحدَ أبناءِ الجوارِ على الأغلبِ بشيءٍ من الاستحياءِ.

تستلمُ ريماس جُبنَ مونَتها السّنوية شاكرةً زوجَهَا على جهده المبذُول في تأمينِ هذه المُونة السّنوية الثّمينة التي تقولُ بأنّها عمودُ المطبخِ الفقريّ، وتقولُ: المطبخُ الذي فيه جبنٌ، فيهِ كلّ شيءٍ، والمطبخُ الذي ليسَ فيهِ جبنٌ، لا شيءَ فيهِ.

تتركُهُ كخطوة أولى في ذات الأواني حتّى يتخلَّصَ ما أمكَنَ من الماء، وحولَ العصرِ بعد أنْ يعودَ زوجُهَا ويتغدّى ويغفو القيلولَةَ، تبدأ في تقطيعه إلى شرائح، ثم تقومُ بتمليحِ الشرّائحِ واحدةً واحدةً بشكل جيد، وتتركُهُ مملّحاً في إناء كبيرٍ ضخمٍ لمدّة ثلاثة أيّامٍ متتاليةٍ حتّى يتشرّبَ الملحَ بشكلٍ كافٍ، وتقسو شرائحَهُ.

عندَما تثقُ بأنّهُ غدَا مكتملاً للمرحلَة المُقبلة، تستعينُ ببعض قريباتها، أو جاراتها حتى يساعدْنَها في غليه، وبَعدَ أن تفرغَ من الغلي تتَركُهُ حَتى يبردَ مُستَغلّةً هذه الفترةَ كي تجهّزَ الماءَ المغليّ المُملّحَ الذي يحفظُ الجُبنَ في العبوات التنكيَّة.

بعد أنْ تتلمسَ شرائحَ الجُبنِ وتتأكَّدَ بأنّهُ بَردَ جيداً، ترصفُهُ في العبوات بشكل مُتناسق وقويم، ثم تسكَبُ ماءً بارداً في إناء، وتضعَ فيه بيضةً نيئةً طازجةً، تسكبُ الملحَ حتى ترتفعَ البيضةُ من قعرِ الإناء، ويطوفَ نصفُها على سطحِ الماءِ، عندئذٍ تكتفي بالَملحِ، وتغلي الماءَ، ثَمَّ تتركَهُ كي يبردَ بشكلٍ جيدٍ.

في اليوم التّالي تنتقلُ إلى المرحلَة النّهائيةِ، فتسكبَ الماءَ على الجبنِ حتّى تمتلِئَ العبواتُ الخمس على الأغلبِ.

تتركُ ذلكَ يومين حتّى ترى النّقصَ الذي يحدُثُ في الماء، فتَزيدهُ، ثمّ تُحكمُ التّنكَ بأغطيتها جيداً، وتمرّرُ على الأغطيةِ المعجَونَ الَحديديّ اللاّصقَ الذي يحجبُ عنها دخولَ الهواءِ.

بعد عدّة أيّام يجلبُ /بزم مير عقل/ سيارةَ أجرة ويأخذُ العبوات إلى برّاد المدينةَ، يضعُها هناكَ برسمِ الأمانَة، كي يستخدمَها واحدةً واحَدةً، وأحَياناً يبقَى أسبوعين دونَ جُبنَ بينَ انتَهاء عبوة وأَخرى كي يحنَّ إليه، حتى يأِتي على العُبوةِ الأخيرةِ في شَهرِ آذار، وَيعيدُ الكرَّةَ مرةً أخرى.

حينَ فرغَ من ارتداء ثيابه وراحَ يرتدي حذاءَهُ، عندئذ فطنَتْ زوجتُهُ بأنّهَا نسيتْ أنْ تُنظّفَ الحذَاَءَ وتلمّعَهُ، فهرعَتْ مُسرعةً وَهي تعتذرُ عن نسيانهَا.

في تلكَ اللّحظة تناهَى صوتُ منبّه الباص، وبعدَ لحظات، تناهَى جرسُ البابِ دونَ توقفٍ، فقالَت: أسرعْ رجَاءً، إنهُ الدبُّ.

ارتدى الحذاءَ قبلَ أن ينشفَ من أثرِ المعجونِ المُلمعِ، وفتَحَ البابَ على عَجَلٍ ليسمَعَ صوتَ السّائق /قدري/ مُعاتباً إياهُ: لو أفقتَ قبلَ خمس دقائقٍ يا أستاذ /بزم مير عقل/ لوفرْتَ علينَا وعلى الأساتذَةِ هذا التّأخرَ على الدّوامِ.

رفعَ كفَّ السلامِ على زملائِهِ الذين يجلِسُونَ في مقاعِدِهِمْ، وراحَ يجلسُ على المقعد المخصّصِ لهُ.

في تلكَ اللّحظات ومع انطلاقِ الباص راودتْهُ رغبةٌ فيما لو سدّ أذنيه، وأغلقَ عينيهِ أيضاً كي لا يرى ولا يسمَعَ شيئاً حتى يقفَ الباصُ بجانبِ رصيفِ مديريةِ الشؤون الاجتماعية والعملِ.

أخذَ يردد في سرّهِ:

- بلاءُ الإنسانِ في اللّسان.

- مَن سبّكَ في غيابِكَ، هابَك في حضورِك.

- من لانَتْ كلمتُهُ، وجبَتْ محبتُهُ.

- لاتبِع هيبةَ الصّمتِ برخيص الكلام.

- تنبتُ الحكمةُ في القلبِ، وتتفرعُ في اللّسان.

- ما خرجَ من فيكَ، فهو فيكَ.

- أول الحربِ كلمةٌ.

- زلَّةُ الرجلِ، ولا زلّةُ اللسان.

- حتى الأحمقُ إذا صمتَ يعدُّ حكيماً.

- أصعبُ من علم الكلامِ، فنُّ الصمتِ.

- الذي يتحدّثُ كثيراً، ينتجُ قليلاً.

قفزَتْ إلى ذاكرَته مقولةٌ قرأها لـ فرويد يقولُ فيها /أنَّ زلاّت اللسان هي مظاهرٌ مرضيَةٌ لنفسيَّة الإنسان في حياته اليومية/، ثمّ أخذَ يكررُ في قرارة نفسه المثلَ الفلبينيّ: /الفمُ المَطبقُ لا يَدَخُلُهُ الذبَابُ/

ثمَّ الحكمة الفرنسية: /عليكَ أن تكرّر الجملةَ على لِسانكَ قبلَ أنْ تنطقَ بها/

عندئذ رأى الحافلَةَ تصلُ موقفَ الدائرة، فتمتمَ لنفسه: اللسانُ عضلةٌ، تكمنُ وراءَها كلُّ مُعضلة.

نزَلَ منَ الحافلة بتؤدة، وقفَ قليلاً في الشّارع يتأملُ الضّبابَ، وبعضُ الحركة التي أخذتْ تدُبُّ بالقربِ منهُ.

مدّ خطواتٍ متّزنة صوبَ بابِ الدّائرة الحديديّ الضّخم.

تلقّاهُ المُستخدَمُ /ظرّوف/ قائلاً: صباحُ الخيرِ أستاذ بزم.

هزّ رأسَهُ بالإيجاب، ثم سلّم جسدَهُ لفم الدائرة الكبير، وراحَ يقفُ بجانب المصعد، يقفُ برَهبة كعادَته كلَّ صباحٍ، ويتذكَّرُ تفاصيلَ ذاك اليوم الأسود الذي جاءَهُ فيه ابنُه /بهاء/.

كانَتْ السّاعةُ تشارفُ على الواحدة ظهراً، وكانَ بزم على موعد لزيارته كي يأخذَهُ إلى طبيبِ الأمراضِ الصّدرية الذي يُعالجهُ من مرضِ الرّبو.

صعدَ بهاءٌ إلى الطّابق الثالث ودخلَ على أبيه الذي استقبَلَهُ بترحاب وراحَ يُقبلُهُ على خدّيه وكأنّهُ لم يرَه منذ سنة، ثم تقدمَ بهاء يُسلمُ على زملاءِ أبيه واحداً واحداً في المكتب.

بعدَ قليلٍ خرجَا، وعندمَا اتّجهتْ خطواتُ بهاءٍ نحو المُدرّجِ، أوقَفَهُ أبوهُ طَالباً إليهِ الانتظارَ ريثما يصلُ المصعدُ.

قال: النّزولُ سهلٌ يا أبي.

عندئذٍ ذكّرهُ بكلامِ الطبيبِ الذي حذّرهُ من بذلِ جهدٍ عندمَا يشعرُ بضيقٍ في النّفسِ.

دخَلا المصعدَ، وبعد قليلٍ من تحرُّكهِ نحو الأسفلِ، فوجِئَا بوقُوفهِ بشكلٍ مُباغتٍ!

تسرّبتْ نظرةٌ من عيني بزم صوبَ المِصباحِ، فرآهُ مضاءً.

خمّنَ بأنّهُ وقَفَ في الطّابقِ الثاني ريثما يصعدُ أحدٌ.

طالَ الانتظارُ، فأدركَ بزم بأنّ المصعدَ تعرّضَ للعطلِ مما أدّى إلى وقُوفهِ بشكلٍ مُفاجِئ.

اندفَع بهلعٍ تلقائيٍ يُخبّطُ على البابِ المُحكمِ بحزمٍ شديد دونَ أنْ يسمعَهُ أحدٌ، وبشكلٍ مباغتٍ كمَنْ عثرَ على خيطِ نجاةٍ انفجَرَ صوتُ بهاء: الموبايل يا أبي؟

صعدَ الدمُ إلى وجهه قليلاً، ولطَمَ بكفّه على فخذه لعدم تذكّره الموبايل. أخرجَ الجهازَ السحريَّ الصّغيرَ على عجلٍ وأجرى اتّصالاً بزميلهِ (قيس).

بعدَ عدّة رنّات تناهتْ نبراتُ (قيس) وكأنّها قادمةٌ من عالمٍ آخر: نعمْ يا صديقي بزم، طمئنّي على صحةِ بهاءٍ؟

اندفَع صوتُ بزم المُرتبك: ما أزالُ في المصعدِ يا قيس.. الحقني!

قالَ قيسٌ وقَدْ وقفَ على قدمَيهِ مُلفتاً أنظارَ زُملائهِ في المكتب: تقصُدُ تَعطلَ المصعدُ؟!

قال: تعطّل بنا يا قيس.. أرجُوك افعل شيئاً لأنّ بهاءْ يعاني من ضيقِ التّنفسِ.

هرعَ قيس نحو المصعد، ولحقَهُ الزملاءُ.

وقفُوا جميعاً ينظُرونَ إلى الباب المُحكم، ثمّ نزلُوا إلى الأسفل، فوجدُوا البابَ الأرضيَّ كذلك مُحكماً، فأدركُوا أنّ المَصعَدَ معطّلٌ في الوسطِ.

سارَعَ قيسٌ نحو غرفةِ المديرِ وأخبرَهُ بالأمرِ.

وبعدَ لحظات تحلّقَ جميعُ المراجعين بالإضافةِ إلى الموظّفين والموظّفاتِ حولَ المصعدِ في الطّوابقِ الثلاثةِ.

عندئذ اتّصلَ المديرُ بأحد الميكانيكيّين الذين لهُم خبرةٌ في فكّ وتركيبِ المصعد، فجاءَ الرجلُ ولبثَ ثَلاثَ ساعات متواصلة دونَ أن يتمكّنَ من فعلِ شيءٍ لأَن المصعدَ جمدَ في موضعهِ بشكلٍ ثابتٍ.

بينما لبثَ بزم يصرخُ ويهدّئ من روعِ ابنهِ الذي باتَ يعاني نوباتٍ شديدةً من الرّبو نتيجةَ قلةِ الأوكسجين.

عندمَا بلغَتْ السّاعة الخامسةَ مساءً، خلتْ الدائرةُ من المُراجعين والموظفين، وذهبَ المديرُ إلى بيته، أمّا الرجُلُ الميكانيكي قالَ بأنّهُ سيضطرُّ للذهاب قليلاً لعلّهُ يُحضرُ مَن يَعينهُ على العمل، في حين بقي قيس مع الموظفةِ / تشريق / ورفضَا العودةَ إلى البيتِ وتركِ زميلهما في تلكَ المحنةِ.

اتّصلتْ تشريق بأمّها وأخبرتْها بما وقَعَ لزميلِها، ثم اتّصلتْ مع بريماس وأخبرتْها بما وقعَ.

بعد نحو نصفِ ساعةٍ كانَتْ ريماس مع أولادِها في الدّائرةِ، وكذلك جاءَتْ أم تشريق.

أخذَتْ ريماس تطرقُ على أبواب المصعدِ وهي تصعَدُ الطوابقَ وتنزلُ، وتتحدّثُ مع زوجِها بواسطةِ الهاتفِ.

في الثّامنة مساءً جاءَ الرجلُ الميكانيكيُّ برفقة ثلاثة أشخاص، وباشرُوا العمل، ولمَ ينجَحُوا في إصلاحِ المصعد إلا في الحاديَةِ عشرةً ليلاً حيثُ استطاعُوا أن يسحبُوا المصعدَ نحو الأعلَى بأياديهم.

عند ذاك كانَ بهاء قد فارقَ الحياةَ بين يدَي أبيهِ الذي صمَتَ هو الآخرُ دونَ أن يُصدُرَ منه صوتٌ.

منذ ذاكَ اليوم لمْ يتحدّثْ بزم بكلمة واحدة، ولمْ تعدْ لديه رغبةٌ في الحديث، حتى الأَطباءُ لم يجدُوا أيّ علاًجٍ لهُ، وًأعادَ بعضُهم السببَ إلى الأزمة النّفسيةِ التي تعرّضَ لهَا، وربّما يعُودُ إليهِ الصَّوت عندما يستقرُّ وضعهُ النفسيُّ.

بعدَ وقوف دامَ نحو خمس دقائق وهو ينظُرُ إلى المصعد الذي لمْ يعُدْ يمدُّ قدمَيه إليهً مهما كانَتْ الضَرّورةُ وعبارةُ ابنه تجلدُ سمَعَهُ: -النُّزولُ سهلٌ يا أبَي- اتجَهَ نحو الدّرج صاعداً إلى مكتبه مُتذكراً كمْ أنّهُ كانَ عنيداً بإصراره على رأيه دونَ أن يُصغي جيداً لعبارَة ابنه، بلْ أنّهُ قالَ رأيَهُ وأصدرَ أَمرَهُ والكَلَامُ ما يزالُ في فمِ ابنه. قال: النَزولً سهلٌ يا أبي. كانَ على حقّ لأنَّ النّزولَ لا يحتاجُ إلى بذلِ جهدِ مثل الصّعود.

كم جلدتْ هذه العبارةُ سمعَهُ، كم جعَلتْهُ يشعرُ بأنَّهُ خسرَ ابنَهُ نتيجةَ عنادِه وإصرارهِ على بضع كلمات، ابنهُ الذي وقعَ ضحيةً لكلمات تم توجَيهُهَا إليه منَ أبيه، لو رفضَ هذه الكلمات، وأصرّ على موقفه، ونزلَ بسرعة على المُدرجِ لمَاَ وقعَ لهُ شيءٌ، بيد أنّه امتثلَ لأمر أبيه ودفَعَ حياتَهُ ثمناً لهذه الطّاعة، وهو يُدركُ أنّ النزولَ بالفعلِ سهلٌ بالنسبةِ إليهِ ولا يكلّفُهُ أيَّ جهدٍ، أوَ أيّ مشقّةٍ.

ألقَى السّلامَ على زملائهِ بواسطةِ رفعِ الكفّ، وراحَ يجلسُ خلفَ الطّاولة المُخصصةِ لعملهِ.

انهمَك في العملِ وهو يشردُ كيفَ أنّ الصمتَ يوفّرُ لهُ مساحةً من التّصالُحِ مع نفسهِ، ومع الآخرين.

تمضي الأيّامُ دونَ أن يتحدّثَ بكلمة سوء عن أحد، وما دامَ لا يتحدّثُ بسوء عن أحد، فإنّ أحداً بالمقابلِ لا يقذفُهُ بكلمةِ سوءٍ سواءً في حضورِهِ، أو في غيابهِ.

خلالَ هذه السّنة أحسّ بزم مير عقل بأنّهُ ولجَ مرحلةً جديدةً من حياته، مرحلةً بالغةَ الغنى والأهميّة بالنسبةِ لعلاقتهِ بالحياةِ، وبالمحيطِ الذي يعيشُ فيه.

باتَ يتأمّلُ معانِي الكلماتِ التي يسمعُها كلمةً كلمةً، يتأمّل معاني مُرادفاتِها.

في المساء عندمَا يستفيقُ من القيلولة، يدخُل غرفةً ويتوسّعُ بالقراءة، يبحثُ عن تاريخ علاقة الإنسان باللّغة، يبحثُ عن الأحداثِ السلبيَّةِ والإيجابيّةِ التي أشعلَتْها اللّغة في التاريخ البشريّ.

يدركُ أنّ كل داء يصيبُ الإنسانَ، يصيبُهُ لأنّهُ عديمُ القراءة، أو قليلُها، لا يكونُ المرءُ قوياً إلّا بمقدارِ ما يقرأ، ولا يكونُ واهناً إلا بمقدارِ ما لا يقرأ.

عندما لا تقرأ يا بزم تكونُ ضعيفاً أمامَ رفاقكَ، أمامَ امرأتكَ، أمامَ أولادكَ، أمامَ جوارحكَ، تكونُ ضعيفاً أمامَ وساوسِ نَفسكَ، تكونُ ضعيفاً أمامَ نزعاتِ الشيطانِ.

عندما لا تقرأ ترى كلّ شيء من إنسان ونبات وجماد ووسوسة نفس يتآمرُ عليكَ، تراهُ أقوى منكَ حتى تغدُو فريسةً لوسوسةٍ يمكنُ لَها أنَ

تستبدَّ بكَ وتُفسدَ عليكَ حياتَك شهراً كاملاً، تفسد عليكَ متعةَ الإيواء إلى الفراش، تفسدَ عليكَ متعةَ المشي في شارعٍ بين الناس، تُفسدَ عليكَ مُتعة التسوّقَ، تفسدَ عليكَ مُتعةَ تناول طعامٍ لذيذ، تُفسدَ عليكَ جماليّةَ عناق الذّكورةَ والأنوثة، تفسدَ عليكَ حتّى الاستمتاعَ بالحمّام ذلكَ أنَّ نفسَكَ لا تسطعُ بنور القراءة، ذلك أنَّ عقلكَ لا يتفوّحُ بعطرِ القراءة، ذلكَ أنَّ بدنَكَ لا يستكينُ في سكينةَ القراءَة.

عندمَا تقرأُ تشعرُ أنّكَ قويٌ أمامَ رفاقكَ، تشعُرُ أنّكَ قويٌ أمامَ امرأتكَ، أمامَ أولادكَ، أمامَ وسوسةِ نفسكَ، تشعُرُ أنّكَ قويٌ أمامَ نزغاتِ الشّيطانِ.

عندما تقرأُ تشعرُ بحالة صفاء ومحبة مُتبادلَة مع كلّ ما تراهُ من إنسان ونبات وجماد وجمالية حوار النّفس، وجماليّة مقاومة نزغات الشيطان، تشعرُ بمدى قوّتكَ وتفاعُلكَ وحضورك في نفسكَ، وفي النّاس، وفي أيّ موضع تكونُ فيه. ذلكَ أنَّ نفسكَ تسطعُ بنور القراءة، ذلكَ أنّ عقلَكَ يتفوّحُ بعطرِ القراءَة، ذلكَ أنَّ بدنَكَ يستكينُ في رحابَة سكينة القراءة.

يدخلُ عالماً جديداً، يدركُ فيه قيمةَ الكلمة، يُدرك بأنّها ثروةُ الإنسان الكبرى، يُمكنُ للإنسان أنَ يفعلَ أيّ شيء منَ خلال الكلمة، يُمكنُ لكلمته أنْ ترفَعَ من شأنه، ويُمكنُ لها أن تُلحقَ به بالغَ الضرّر. لذلكَ يصرُّ أنَّ يسمَعَ ويقرأ ويكتشفَ دونَ أنْ يتحدّثَ، يولدُ الإنسانُ وهو يسمَعُ، ويبقَى سنوات وهو يسمعُ قبلَ أنْ يتحدّث بشكل جيد، وحتّى عندما يجيدُ الحديثَ، لا يكونُ ذلك ليتحدّثَ قدرَ أنْ يكونَ ليُفَسرَّ ما يتلقّاهُ من كلمات.

إنّهُ يحتاجُ إلى سنوات طويلة حتى يصبحَ مُهيّأً للحديث الذي يقدّمُه للناسِ، فليسَ من شيءٍ يقدّمُه الإنسانُ للإنسانِ قدرَ لسانه.

أحياناَ يشعُرُ بالسّعادة لأنّ فُقدانَهُ لصوته جعَلَهُ يكتشفُ عالماً جديداً، عالَم علاقة الإنسان بلسانه. عندئذ أدركَ أنَّ لا شيءَ يأتي عبثاً في الحياة، كلٌّ واقعٍ يُفرزُ واقعاً كبديلَ وكتعويض للمصيبة، حتى أنَّ هذا التّعويضَ أحياناً يرتقي به ليجعلَهُ أفضلَ مما كانَ قبلَ حلولِ المُصيبة.

عندما ينظرُ بزم إلى شخص أحياناً يبدُو لهُ أنّهُ ينظرُ إلى لسان طويل، لسانٌ يمشي على قدمين، إنّهُ يُصافحُ اللسانَ، يتحدثُ إلى اللّسانِ، يحبّ اللسانَ، يمقتُ اللّسانَ، يصالِحُ اللسانَ، يخاصِمُ اللسانَ.

كل أحوال البدن والنّفس يمكنُ لها أنْ تظهرَ من خلال اللّسان، ويتحولُ اللسانُ إلى مرآة البدن والنفس بالنسبة للطبيب الذي يطلُبُ من مريضه أولَ الأمر أنْ يمدَّ لسانَه لينظرَ فيه. ينظَرُ إلى اللسانِ ليستكشفَ أحوالَ مريضه.

إذا مالَ لونُ لسانه إلى الاصفرار، يشيرُ ذلكَ إلى نسبة صفار عالية في الدم.

إذا كانَ لونُ اللسان مائلاً إلى الزُّرقة، يشيرُ ذلك إلى وجود مرض بالقلب، أو الجهاز التّنفسيّ.

إذا كانَ لونُ اللسانِ باهتاً، فذلك يدُلُّ على وجود أنيميا.

إذا كانَ يكسُو اللّسانَ طبقةً بيضاء، فهذا يدلُّ على وجود حمى واضطراب في الهضم.

وإذا ظهرتْ رعشةٌ في اللّسان لحظةَ إخراجه من الفم، ذلكَ يُشيرُ إلى وجود تسمم، أو اضطراب عصبيّ.

أما إذا كانَ لون اللسانِ أحمراً ورديّاً، فذلكَ يشيرُ إلى عدم وجود داء.

يدركُ بأنَّ الإنسانَ يتمتّعُ دونَ سواه من مخلوقات الأرض بلسان بليغٍ يُمكن أن يرفَعَهُ إلى درجات متقدّمة في صفوفِ البشرِ، ويمكَنُ أن ينحدرَ بهِ إلى درجاتٍ سفلى من درجاتِ الخزيّ.

يحتاجُ الإنسانُ إلى أربعِ سنوات حتّى يتعلّمَ كيفَ يتكلم بشكلٍ جيّد، لكنّهُ يحتاجُ إلى أربعين سنةً حتى يتعلّمَ كيفَ يصمتُ بشكلٍ جيد.

الإنسانُ هو لسانهُ، واللّسانُ يمثّلُ شخصيّةَ حامله، لكنْ ثمّةَ إنسانٌ يقودُ لسانَهُ، وثَمةَ آخرٌ يَنقادُ خلفَ زلاّت لسانه، وهناكَ زلاتُ لسانٍ أحدثَتْ وقائعَ وأحداثاً كُبرى في التّاريخ البشريّ، وكانَ أصحابُها يردّدونَ في محاولاتِ للتّراجعِ عمّا قالوا: أنّها كانتْ زلاتُ لسانٍ. لكنّ الناسَ يأخذُون الأمرَ على محملِ الجدّ حتى لو كانتْ بالفعل هي زلاّت لسان حقيقيّة، لأنّ هذه الزّلات لا تَنطلقُ من فراغ، ولهَا خلفياتُهَا المخفيَّة كما يتفضّل علماءُ التّحليلِ النّفسيّ بتحليلِهَا بتفاصيلِهم المُملّة أحياناً.

لسانُ الإنسان هو من الألغاز التي ما تزالُ البحوثُ والدّراساتُ، والتّحليلاتُ تدورُ حولَها دونَ أن تبلغَ مرحلةَ الاستقرار، وحقيقةُ الأمرِ فإنّ كلّ بحث يقودُ إلى بحث آخر، وكلُّ بحث جديد هو فتح باب أمامَ منهجٍ جديد للبحثِ عن أسرار هذاَ العضو العضليّ الذي يرتَبطُ بالفكّ عبر سبعَ عشرةَ عضلةَ تؤمّنُ لهُ حركتَهُ وعملَهُ، يغلّفُ سطْحَهُ غشَاءٌ مخاطيٌّ تغطيه آلافُ الحُليماَت الصّغيرة، هذا العضُو العجيبُ الذي يتخصّصُ بهِ الإنسانُ ويتحمّلُ مسؤولَيَتَهُ كذلكَ دونَ مخلوقاتُ الأرضِ.

يتميزُ الإنسانُ الحكيمُ يا بزم بأنّهُ أولُ من يصمتُ، وآخرُ من يتكلمُ، ويتميّزُ الإنسانُ المُتسرّعُ بأنّهُ أولُ من يتكلّمُ، وآخرُ من يصمتُ. ولذلكَ يُقالُ: إذا كانَ الكلامُ من فضّةٍ، فإنّ السّكوتَ من ذهبٍ.

يتذكرُ دوماً قولَ الإمام الشّافعي:

احفظْ لسانَكَ أيُّهــا الإنســانُ

لا يلدَغنَّــكَ إنـَّهُ ثعــبــانُ

كمْ في المقابرِ من قتيــل لسانــهِ

كانتْ تهابُ لقــاءَهُ الأقــرانُ

إلى جانب الكثير من الأمثلة الشّعبية التي تشيرُ إلى عظَمَة مسؤوليّة اللّسان، وتَحذّرُ الناسَ من ألسنَتهم سواءً أكانَتْ مقصودةً، أم كَانَتْ زلات، لأنّ الكَلمةَ تذكّرُ بصاحبها، ولذلك قالَتْ الحكمةُ الشعبيةُ: / لسانُكَ حصانُكَ، إنْ صنتَهُ صانَك، وإن خنْتَهُ خانك /.

ربّما لا يعرفُ الإنسانُ قيمةَ لسانه إلاّ إذا فقدَهُ، ولعلّ فاقدُ الصوتِ هو أكثرُ الناسِ قيمةً لمعاني الكلمات.

قرأ رأياً لــ دي سوسّير يقولُ فيه بأنّ اللسانَ: نسقٌ من العلامَاتِ المُميّزةِ التّي تتوافَقُ مع أفكارٍ هي بدورِها مميّزة.

ويرى أنّ اللسانَ، من حيث هو نسقٌ اجتماعيٌّ، عن الكلام بما هو توظيفٌ وممارسةٌ فرديّةٌ ففي اللّسان يُحذفُ "الجوهر" السّمعيٌّ والنّفسيّ، لكي يقعَ الاحتفاظُ، في الأخير بـ الشّكل، أيْ العلاقاتُ المتفاضلةُ والمتقابِلَةُ بينَ عناصرٍ سواء كانتْ صويتمات أو قواعد.

وقادتْهُ قراءاتُهُ عن اللّسانِ إلى أنْ يعرفَ بأنهُ يتألفُ من أربعِ مناطقٍ:

- أقصى اللّسان.
- وسطَ اللسان.
- حافةُ اللسانِ أو حافّتي اللسانِ.

- طرفُ اللسانِ.

ثمّ قادتهُ قراءاتُه إلى مفهوم اللسان في الدّين، فولَجَ إلى تعريفات غنيّة وهو يقرأ بنَهمٍ ما يتعلّقُ باللّسانِ في القرآن، والأحاديثِ، وكُتبِ الفقهِ.

وعندَما يكونُ في خَلوةٍ يتذكّرُ تلكَ الوقائع التي قرَأها، ويأخُذُ منها الموعظَةَ والمعرِفَةَ.

ذاتَ يوم جلسَ الرسول صلى الله عليه وسلّم مع أصحَابه، فجاءَ رجلٌ وشتمَ أبا بكرٍ الصديق وآذاهُ، فسكتَ أبو بكر ولم يرُدَّ عليه، فَشتَمَهُ الرّجلُ مرّةً ثانيةً، فسَكَتَ أبو بكر، فشتمَهُ مرة ثالثةً فردّ عليه أبو بكر، فقامَ صلى الله عليه وسلم من المجلسِ وتركَهم، فقامَ خلفَهُ أبو بكر يسألُه: هل غَضبتَ عليّ يا رسولَ الله فقمتَ؟ فقالَ صلى الله عليه وسلم: (نزل مَلَك من السماء يُكذِّبهُ بما قال لك، فلما انتصرْتَ (أي رددتَ عليه) وقعَ الشيطانُ (أي: حضر)، فلم أكنْ لأجلِسَ إذ وقعَ الشّيطانُ).

وكانَتْ السيدةُ عائشة تجلسُ مع النّبي، فأقبلتْ عليهمَا أمُّ المؤمنين السيدةُ صفيّة بنت حُيَي، فقالَتْ عائشةُ للنبي: حسبُكَ من صفية كذا وكذا -تعني أنّها قصيرة-، فقالَ لها النبي: (لقد قُلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البحرِ لمَـزَجَتْهُ).

يقول الله تعالى: (ما يُلفظُ من قولٍ إلاّ لديهِ رقيبٌ عتيد).

ويقولُ النبي: (إذا أصبحَ ابن آدم فإنّ الأعضاءَ كلها تُكَفِّر اللسانَ تقول: اتق الله فينا، فإنّما نحنُ بك، فإن استقمْتَ استقمنَا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يستقيمُ إيمانُ عبد حتى يستقيمَ قلبهُ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتى يستقيمَ لسانُه). وقالَ ابنُ مسعود: (والذي لا إلهَ غيره، ما على ظهرِ الأرضِ شيءٌ أحوج إلى طولِ سجنٍ من لسانٍ).

بعد نحو ساعة من جُلوسهِ وانهمَاكهِ في العملِ، دخلَ ظرّوف حاملاً إبريقَ الشاي مع الكاسَاتِ.

وضعَ السكرَ في قعرِ الكاساتِ، عندئذٍ قال قيس: لا تنسَ ظرّوف، ملعقةُ سكرٍ واحدةٍ.

قال: على عيني أستاذ قيس.

قفزَ لسانُ حاجم معلقاً: الأستاذُ يخافُ على نفسهِ من السكّري، أنا ضَعْ لي خمسَ ملاعق سكّر يا ظرّوف بيك.

نظرَ إليه قيسٌ، ثمّ بعدَ قليل أجابَ لسانُهُ: صحة وعافية، يجعلُ الله أيّامكَ كلّها حلوةٌ مثل شايكَ.

كعادته يعلّق حاجم على قيس الذي يكظُمُ غيظَهُ، ويردُّ عليه بكلمة طيّبة، لكَنَّ حاجماً يعودُ في اليوم التالي ليلتقطَ أيّ حديث يقولُه قيس حتّى يُعلّقَ عليه أحياناً أمامَ بعضِ المراجعين، أو بَعضِ الذين يزُورونَ قيس من أصدقائه أَو أقربائه.

منذُ نحو ستة شهور يبدو أنَّ قيس تشاجرَ مع زوجته وأتى إلى الدّوام مُحتقناً، عندئذ نَهضَ حاجم من كرسيّه، وتقدّمَ نحوهُ قائلاً بشيءٍ من السّخرية: /خير يا طير/.

نظرَ إليه قيس باحتقانٍ ولم يردْ.

غدا بزم يصغي إلى الكلمات ويتخيّلُ عراكَ لسانَيهمَا مثل ديكين، وزّعَ قيس نظراتَهُ على جميع الزّملاءِ في المكتبِ وقالَ: نسينَا بأنّكَ تحتاجُ إلى استدعاءٍ وطابعٍ حتى تحكي.

في تلك اللّحظة خرجَ قيس عن طوره وأمسكَ بقميص حاجم من الأمام هازّاً إيّاهُ عدّة هزّات بشدّة وهو يقولَ: (اسكتْ يا حيوان قبلَ أن أقطَعَ لسانكَ وأحطّه في ...).

اصفرّ وجهُ حاجم وهو يسحبُ قميصَهُ بصعوبة من يدَي قيس، وجلسَ على مكتبه.

بعد ذلكَ تقدّمَ بزم من قيس ودعاهُ إلى الخُروج حتّى يهدأ قليلاً. خرجا إلى / البوفيه / يجلسان، فقالَ قيس: هذا الرجلُ لا يعيبهُ شيءٌ غير لسانه الطويل، لوكانَ لسانُهُ في فمي لما تردّدتُ في قطعه لحظةً واحدةً.

مع رشف الشّاي بدأ قيس يتحدّثُ لزميله وصديقه الوحيد في الدّائرة كلّها: أختكَ أَم تمارة اعتدَتْ عليّ بلسانها يا أَبَا بهاء.

كتَبَ لهُ على ورقة مجيباً: الأصواتُ المرتفعةُ من طبيعة النساء يا صديقي، لاعليكَ.

قال: طلبتْ أنْ نعزمَ أختَها وعديلي، لكنّني رأيتُ أن نؤجّلَ ذلكَ إلى الشّهر القادم بسبب ضيق اليد، ثمّ صمتَ وبعدَ قليل أردفَ: أتدري ماذا قالت؟

- قالتْ الذي لا يكونُ بقدر مسؤوليّة الزّواج عليه ألا يتزوجَ.

ضحكَ قليلاً ثمّ كتبَ لهُ على ذات الورقة مجيباً: يقولونَ على سبيل الدُّعابة أن لسانَ المرأة هو آخرُ عضو يموتُ فيها. يا رجل، المرأةُ مسكينةٌ، تقولُ كَلمةً، وبعد لحظة تقولُ عكسَها، خذْ الأمرَ ببساطة، حتى الشتائم بين الزوج والزوجة يُمكنُ أن تحتَملَ شيئاً من الغزل المُبطَّن، ثم كتب له:

قال علي بن أبي طالب: بكثرة الصمت تكونُ الهيبةُ.

وقال عمرو بن العاص: الكلامُ كالدّواءِ إن أقللتَ منهُ نَفعْ، وإنْ أكثرتَ منهُ قتلْ.

وقال الحسن رحمه الله: اللسانُ أمير البدنِ، فإذا جنى على الأعضاءِ شيئاً جُنّت، وإذا عفَا عفتْ.

وقيل: الكلمةُ أسيرةٌ في وثاقِ الرجلِ، فإذا تكلّمَ بها صارَ في وثاقِهَا.

يقول أبو بكر الصديق: إنّ البلاءَ موكلٌ بالنطق.

ويقول ابن مسعود: ما شيءٌ أولى بطولِ سجن من لسان.

ويقولُ انس بن مالك لا يكونُ المؤمنُ مؤمناً حتى يتحرّز من لسانِه ولسانِ غيره.

ويقولُ الشّاعر يعقوب الحمدوني:

وقدْ يرجي لجرحِ السيفِ برء ولا برء لما جرح اللسان

ويقول أكثم بن صيفي: مقتلُ الرّجلِ بين فكّيه.

وقيل: من ضاقَ صدرُهُ اتّسعَ لسانُه.

عيٌّ صامتٍ خير من عيّ ناطق.

السُّكوت سلامةٌ.

الندم على السُّكوتِ خيرٌ من النّدم على الكلام.

من تكلّمَ بكلّ ما يريدُ لم يتورّع في كلامِه.

المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانِه فإذا نطقَ ظهر.

إيّاك وما يعتذرُ منه.

وقال الربيع بن خثيم:

اقلل الكلامَ إلاّ من تسعٍ: تكبيرٌ وتهليلٌ وتسبيحٌ وتحميدٌ وسؤالُكَ الخير وتعوُّذُك من الشرَّ وأمرُكَ بالمعروفِ ونهيُكَ عن المنكرِ وقراءتُكَ القرآن.

وفي وصيّة أوصى بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم ابنهُ محمّداً بن الحنفية قال: وامسكْ عليكَ لسانَكَ. فإنَّ تلافيكَ ما فَرطَ من صمتكَ أيسرُ عليكَ من إدراكِ ما فات من منطقكَ.

ويذكُرُ أبو طالب المكّي:

يُقالُ في اللّسان ستةٌ وثلاثون نوعاً من المعصية، مثل: المداهنة والنّفاقُ والتزيينُ والجدالُ والمُراء والخُصومةُ والقذفُ وشهادةُ الزور واليمينُ الفاجرَة والغيبةُ والكذبُ والبُهتانُ والنّميمةُ واللّجاجةُ والمدحُ والذمُّ والسحرُ والكفرانُ للنّعمة والمَعصيةُ بالباطل.

وقالَ صعصعة بن صوحان لمعاوية بن أبي سفيان: والله يا أميرَ المؤمنين إنّي لأدعُ الكلامَ حتّى يَختمر في صدري فما أرهفَ به وَلا اتلهق فيه حتّى أقيمَ أوده وأحرر متنه.

وقد سألَ العباس رسول الله صلي الله عليه وسلم: فيمَ الجمالُ يا رسولَ الله؟

فقال: في اللّسان.

بعد عودتهما إلى المكتب، تقدَّم حاجم إلى قيس واحتضَنَهُ مُعتذراً عمّا بدرَ منهُ وهوَ يقول: يا أخي حتّى زوجتي تقولُ لي بأنَّ لساني طويلٌ، ماذا أفعلُ لقد ورِثتُهُ عن أبي، فضحكُوا جميعاً.

لبثَ بزم يشردُ كيفَ أنّ الإنسانَ يمكنُهُ الاستغناءُ عن نصف ما يقولُهُ من كلماتِ كلّ يومٍ.

الزُّملاءُ يتحدثونَ طويلاً، وهذه الأحاديثُ التي تحملُ همزاتٍ ولمزاتٍ غير مُباشرةٍ تسبّبُ الاستفزَاز سواءً المُباشرَ أو غيرِ المُباشرِ لهمْ.

كانَ في الماضي يثرثرُ كما يثرثرونَ وكأنَّهُ محكومٌ عليه بقول ذاكَ الكمّ الهائل من الكلمات، عندئذ أدركَ أنّ التبذيرَ في الكلمات لا يقلُّ عن التبذيرِ في المالِ، لأنَّ الكلمةَ تحتاجُ إلى بذلِ جهدٍ من كلّ أعضاءِ الجسدِ.

تذكر قولاً لجرير يقولُ فيه:

جرحُ السّيفِ تُدملهُ فيبرأُ ويبقى الدّهرُ ما جرح اللسان

غدا يُتمتم لنفسه:

تملكُ لساناً واحداً يا بزم، وتملكُ أذنين اثنتين، اللّسانُ يقعُ خلفَ بابين، والأذُنان طليقتان حتّى تسمعَ أكثرَ مما تتحدّثُ لأنّكَ تحتاجُ إلى السّمعِ أكثرَ من حاجَتكَ إلى النّطق، وتكتشف الحياةَ عن طريق الأذنين أكثرَ ممّا تكتشفها عن طريق اللّسانِ، ما يعلّمهُ إيّاكَ السّمعُ، يفسَدُهُ اللسانُ عليكَ.

ألا ترى أنّ النطقَ يحتاجُ إلى بذل جهد، في حين لا يحتاجُ السمعُ إلى أيّ حركة حتى يعلّمكَ شيئاً جديداً. اللّسانُ يصلُحُ مرةً، ويفسدُ عشرَ مرّاتٍ، لذلكَ فإنّ قلةَ الكلامِ حكمةُ الرجالِ والنساءِ معاً.

إنْ أطلقَ الإنسانُ العنانَ للسانه قتَلَهُ لسانُه، كمْ من لسانٍ أدى بصاحبه إلى التّهلكة، كم من لسانٍ سفكَ جَداولاً من الدّماء، كمْ من لسانٍ هدّ بيوتاً آمنةً، كم من لسانٍ أشعلَ العداوةَ والبغضاءَ بينَ شخصين مدى الحياة.

انظرْ جيّداً يا بزم إنْ أردتَ النّطقَ احتجتَ إلى فتحِ بابِ الأسنان، وفتحِ باب الشفتين، وتحريك اللّسان، واستخدام الصوت والاستعانةَ بأكثرَ أوتارِ الجُملةِ العصبيّةِ حساسيّةً، وبشيءٍ من التّركيزِ والحدّة قد تستعينُ

بيديكَ وعينيكَ وحاجبَيكَ ورأسك كما يفعلُ حاجم أحياناً، وهذا كلُّهُ يُسببِ الإرهاقَ لهُ، يعلُو الاحتقانُ سمَاتَ وجهه، يختلُّ قلبُهُ في نبضه.

أمّا وأنتَ تسمعُ، ينشرحُ صدرُكَ، يتّسعُ تأمُّلكَ، تستكينُ في حُضنِ نشوة السّماعِ والتّأمل، تدخُلُ بكاملِ حواسكَ حالةً استرخائيّةً من لذّة الإصغاء، ونشوةِ التّأملِ قد تُتوِّجُ بغفوةٍ لم تُدركْ لذّتها في ألفِ نومٍ.

غدَا يتذوّقُ لحظاتِ الحياةِ مع كلّ فعلٍ يقومُ بهِ، مع كلّ نظرةٍ ينظُرُها، مع كلّ كلمةٍ يقرأها.

يتمتمُ لنفسه: تسْطعُ شمسُ الحياة يا صاحبي على أولئكَ الذينَ يبذّرونَ البذورَ، ويَنتظرُون شرُوقَها كي تينَعَ تلكُ البذورِ فيغتنِي بها الزّارعُ، ويغتنِي بها الآخرون، وتغتنِي بها الحياةُ أيضاً.

كثيرونَ يمضُون حياتَهم دونَ أن يبذُروا بذرةً واحدةً، ودونَ أنْ تسطَعَ عليهم شمسُ الحياةِ، إنّهم يعيشونَ في ظلامٍ أبديّ، لمْ تشرُق على ظلمَتِهم أيُّ شَمسٍ.

الحياةُ هي إحساسٌ داخلي بالإشراقِ والطّرب يعبقُ على النّفوسِ جميعاً، بيدَ أن آليةَ الاستقبالِ لهذا الإحساَس تختلفُ من تركيبةٍ إنسانيةٍ إلى غيرها، وهذا يتداخَلُ بمفهومِ حياةِ الغنى لَدى شرائحِ النّاس.

ما يهمُّ أن أيَّ إنسانٍ على سطحِ الأرضِ يمكنُ لهُ أن يعيشَ دفءَ الحياة النّفسية حتّى لو كانَ في خيمةٍ صغيرةٍ في عمقِ صحراء، يمكنُ لهُ أنَ يستمتعَ بشروقِ الشّمس على حيَاتهِ كلّ صباحٍ.

الشمسُ هنا تكونُ لمن يُهيئُ مشاعرَهُ لاستقبالها، ويستمتعُ بلحظاتها الذّهبيةِ، وعندئذٍ يمكنُهُ أنْ يشرقَ على الحياةِ ويقدِّمَ عملاً مجدَياً فيها.

ليسَ بوسعِ الإنسانِ أنْ يفعلَ شيئاً مُجدياً دونَ أن تشرقَ الشمسُ على حياته، لأنّ الشمسَ هنا تحملُ معها دفقاتِ الحياةِ، ودفقاتِ الحيويّةِ التي هي بمثابةِ النّبضِ لفؤادِ الحياةِ.

اسمع كثيراً يا بزم، إنّك لمْ تسمعْ إلا القليلَ، وانظرْ كثيراً، إنّك لم ترَ إلا القليلَ، واقرأْ كثيراً، فإنكَ لم تقرأْ إلا القليلَ، ولا تفكّر في النُّطقِ كثيراً يا صاحبي، فإنّكَ قلت الكثير.

اسمعْ أصواتَ كائناتِ الطّبيعة، سترى كلّ صوت يغتني بميزة خاصة به، إنّكَ تحتاجُ إلى سماعِ لسانِ كلّ حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، اسمعْ رزامَ الإبلِ، ستراهُ مختلفاً عن طنينِ الذّباب، اسمع أزيزَ الرصاص، ستراهُ مختلفاً عن عندَلة العندليب، اسمعْ عواءَ الذئب، ستراهُ مُختلفاً عن بفوم الفيل، اسمعْ تغريدَ البلبل، ستراهُ مختلفاً عن فحيحِ الأفعى، اسمعْ قباعَ الخنزير، ستراهُ مُختلفاً عن ثغاء الغنم، اسمعْ قصفَ الرعد، ستراهُ مختلفاً عن قعقعةِ السّيوف، اسمعْ خترشة الجراد، ستراهُ مختلفاً عن قطقطة القطّة، اسمع حفيفَ الأشجار، ستراهُ مختلفاً عن جحمة الفرس، اسمع قهقاع الدبّ، ستراهُ مختلفاً عن حنينِ النّاقة، اسمعْ خريرَ الماء، ستراهُ مختلفاً عن خشخشة القرطاس، اسمع دويّ النحل، ستراهُ مختلفاً عن مواء الهرّ، اسمعْ دبيبَ النمل، ستراهُ مختلفاً عن نباحِ الكلب، اسمع نقيقَ الضفادعِ، ستراهُ مختلفاً عن زمار النعامة، اسمع نعيقَ الغراب، ستراهُ مختلفاً عن هديل الحمام، اسمع سجيرَ النار، ستراهُ مختلفاً عن صرير الباب، اسمع نهيقَ الحمار، ستراهُ مختلفاً عن يعار المعز، اسمع دويَّ الهواء، ستراهُ مختلفاً عن قلقلة المفتاحِ، اسمع ضغيب الأرنب، ستراهُ مختلفاً عن نغماتِ الأوتار.

ستتعلّمُ من كلّ صوت تسمعهُ، ويمكنُ لكَ أن تجري حواراً صامتاً مع هذهِ الأصوات، فتراها تستجيبُ وتحاورُك بما أنتَ عليهِ من صمتٍ.

إن سماعَكَ عن شخص يا بزم ليسَ واقع الشخص ذاتَهُ، إنهُ مفهومُ مَنْ يُسمعكَ تقييمه لهذا الشخص، إنّها كلماتٌ عنهُ، كما لو أنّكَ تنظرُ إلى صورة عنهُ، إنّك تنظرُ إلى ما أخذَتْهُ عين آلة التصوير.

المفاهيم في أمر من الأمور تختلفُ من شخص لغيره، حتّى عباراتُ التقييم الواحد تختلفُ من شخص إلى شخص آخر، وهذا يأتي على الأخلاقِ، على الجمالِ، على الحقّ، على العدلِ، على الحبّ.

فما أسمعك من الأخلاق قد لا يكونُ أخلاقاً، وما أسمعكَ من الجمال قد يكونُ مُختلفاً لمقاييس الجمال، وما أسمعك من الحقّ قد يكونُ جوراً، وما أسمعكَ من العدل قد يكون ظلماً، وما أسمعكَ من الحبّ قد يكونُ بغضاً، عليكَ أن تعلَمَ معرفة مفهوم سامعك لهذه القيم حتى تتبينّ أمامَكَ الحقائقُ وفقَ المفهومِ الذي تنظرُ منهُ إلى تلك الحقائق.

سنةٌ مضَتْ عليكَ يا بزم دونَ أنْ تُسببَ حساسيّة لأحد، حتّى أولئكَ الذين وقعُوا على خصام معكَ نتيجةَ كلمات قلتَها بحقّهم سواءً في حضُورهم أو غيابهم، أتُوا لعيادَتك وفتحُوا معكَ صفحةً جديدةً. كانَتْ سنةَ صلح بامتياز في تاريخكَ الصّغير، ولمْ تكن سنةَ خصامٍ، سنةَ سلمٍ، وليستْ سنةَ نزاعاتٍ.

حتى في البيت لمْ ترفعْ ريماس صوتَها خلال هذه السّنة، أحياناً تتحدثُ بعصبيّة، وعندما تراكَ صامتاً سرعانَ ما تقدّم اعتذارَها الشّديدَ عمّا بدرَ منها نتيجةَ ردّ فعلٍ، أو نتيجةَ تسرّعٍ في استنتاجِ أمرٍ ما.

كنتَ في الماضي ترفعُ صوتَكَ لتجعلَها تصمُت، فتزيدُ من رفع صوتها، وفي مواقف الانفعال كنتَ تمدُّ يدكَ لتصفعَها، وحدثَتْ مرّات كثيرة خلالَ السنوات الماضية مُلاسناتٌ بينكما أدّتْ إلى أنّكَ صفعتَها، فكانَت النتيجةُ أنّها تزدادُ عناداً. الآن تدركُ أنّ لا شيءَ للمرأة غير لسانِها الذي من خلاله

تفجّرُ ثورةَ الاحتقانِ التي تجتاحُها خلالَ تعرّضها للأزمات النّفسيّة نتيجةَ تربيةِ الأولاد وإدارة مسؤولية كلّ من فيه، وكلّ مَن يدخله. إنّهاَ كائنةٌ مستنفَرةٌ ليلاً نهاراً، لا ساعةَ للراحة لديهَا، لأنّ الطفل لا يمنحُها هذه السّاعة. وعندمَا يكبرُ الطّفل، فإنّ مسؤوليتَها عن البيتِ لا تمنحها هذه السّاعة.

عندما يبكي الطّفل في منتصف الليل، فإنّك تهربُ من مسؤوليّتكَ تجاهَهُ، وتبتعدُ عن بكائه لتنامَ في غرفة أخرى، بينما لا تنجح هي كي تحذُو حذوَكَ، ولا يخطرُ في بَالها أن تحذُو حذوكَ، إنّها مسؤوليّةُ الأمومة التي تعلُو مسؤوليّةَ الأبوة، هذه المسؤولية الناقصة التي تجعلك تتخلّ عنَ طفلكَ في منتصف اللّيل وتتخلّى عنهُ في ذروة بكائه، وذروة حاجته إليك، أمامَ مسؤوليّة الأمومة الكاملة التي لا تسمحُ لها أَنْ تتخطّى مسؤَوليتَها قيدَ شعرة واحدة، وتصبر، وتدندن لهُ ساهرةً حتى نقنعَهُ بالنّوم وهي تقلّبُهُ على كلّ الأوجهِ حتى يهدأ في الوجهِ الذي يريدُ ويغفُو على سماعِ صوتِها الذّهبي.

الآن يا بزم ريماس تَحترمكَ أكثرَ مما كانَتْ، حياتُكما الزّوجيةُ تمضي بهدوءٍ وسكينةٍ ومودةٍ أكثر من أيّ سنةٍ مضتْ على زواجِكما.

أحسّ بندمٍ شديد على كلّ تلكَ الكلمات التي لم تكُنْ في موضعها، تلك الكلماتُ الانفعاليّةُ المُتسرّعةُ التي بدرَتْ منهُ. ذاكَ الكمّ الهائل منَ الكلام الذي لم يكُن لهُ أيّ ضرورة سوى أنهُ زادَ البغيضةَ والاحتقانَ بينهُ وبينَ الآخرين، وفي بعضِ المراحلِ جعلَ عداوةً بينهُ وبينهم.

علّمتْهُ هذه السّنةُ أنّ على الإنسانِ أنْ يضبطَ لسانَهُ قبلَ أن يضبطَ أيّ شيءٍ آخر لديهِ.

عندَ السّاعة الثالثة نهضَ موحياً لقيس بأنّهُ لن يعودَ إلى البيت بباصِ الدائرةِ، لأنّ ريَماس أوصتْهُ بشراءِ بعضِ السلعِ من سوقِ الهالِ.

قال قيس: منذ يومين تمّ افتتاحُ معرضٍ للفنّ التشكيليّ لأحدِ الفنانين القادمين من حلب، ما رأيُك أنْ نزورَهُ؟

أومَأَ بزم رأسَهُ بإيجابٍ، فقالَ قيس: سوفَ أمرُّ بك في البيت ونخرجَ معاً.

هزّ رأسَهُ وخرجَ من الدائرة مسلماً حواسّهُ للطرقات الفرعيّة التي أدخلتْهُ عالمَ سوقِ الهالِ المُكتظَّ بالفاكهة، وعربات /الدَفش/، وَألوانِ الخضارِ والفاكهةِ، وأصواتِ الباعةِ، وزحمةِ المشترين.

انتقَى ما أوصتهُ به ريماس بحسب ما دوّنتْ على قصاصة صغيرة. عندئذ تقدّمَ منه صبيٌّ يبيعُ أكياسَ النايلون الكبيرةِ السوداءِ قائلاً: عمو كيس بخمس ليرات لأغراضك.

وضعَ الأكياسَ الصّغيرةَ في الكيس الكبير، وأشارَ إلى الصبيّ كي يحملَ عنهُ إلى حيث موقفِ الباصِ الذي يبعدُ عشرينَ خطوة.

هناكَ أعطى الصبيّ قطعةَ نقودٍ معدنيّةٍ بفئةِ العشرِ ليراتٍ، وصعدَ الباصَ الذي كان واقفاً.

بعد دخول شارعين، فرملَ الباصَ بشكلٍ مُفاجئٍ وصدرَ صوتٌ مرتفعٌ من السّائق يقول: يا حيوان.

كانَ الصوتُ موجهاً إلى سائقِ تكسي أجرةٍ.

نظرَ الناسُ جميعاً إلى السّيارة الصفراء التي كادَتْ أنْ تلتصقَ بالباص، فنزلَ سائقُها مغتاظاً وهو يوجّهُ لسائقِ الباصِ كلاماً خرجَ من فمهِ كالشرّارِ: لَو لم تكنْ حيواناً وابن حيوانٍ لمَا قلت ليَ ذلك.

قفز ديكان إلى مخيلةِ بزُم وهو يصغي للسانَي السائقَين.

قال لسان سائق الباص: أأنتَ أعمى، وعلى الفورِ هبط جسدُهُ على الأرضِ وبدأ يسددُ اللّكماتِ إلى وجهِ سائقِ التّكسي.

نزلَ بعضُ الركابِ للتفريقِ بينهما، وفي أثناء ذلكَ انطلقتْ صرخةٌ مروعةٌ من سائقِ الباصِ، فعرفَ الرّكابِ أن سائقَ التكسي طعنَهُ بسكينٍ في خصرِه.

سارع شرطيّ السّير الذي كانَ واقفاً ينظّمُ السير، وأمسكَ بسائقِ التّكسي بعدَ أن نزعَ السكينَ من يده، وأوقَفَ سيارةً أخرى طَالباً منَ سائقِها أنْ يُسعفَ المُصابَ إلى أقربِ مشفى.

نزلَ بزم مع الرّكابِ العائدين على الأغلبِ من أعمَالِهم، يحملُون سلعاً من سُوقِ الهالِ في أكياسٍ مُتفاوتةِ الأحجامِ.

بعد قليلٍ وقفَ باصٌ آخرٌ، فهرعُوا صاعدينَ إليه وقُوفاً، عندئذ صدرَ صوتٌ من الرُّكاب نحو السائق: هل الباصُ حبةُ كَوسه وأنتَ ترِيدُ أنْ تحشُوها. يكفي جَشَعاً، اختنَقنا.

قالَ لسانُ السّائق بصوت مُرتفع راداً على الصّوتِ دونَ أنْ يعرفَ صاحِبَهُ: إنْ لم يُعجبكَ، التّكاسي كثيرةٌ.

بعدَ عدة مواقف تقدّمَ شخصٌ للنّزول، عندئذ وجّهَ كلاماً للسّائقِ: السّواقةُ فنٌّ وذوقٌ وأخلاقٌ، ويبدُو أنّكَ لم تَسمعْ بذَلك.

عرفَ السّائق بأنّهُ كانَ صاحبُ الصوت الذي قارنَ الباصَ بحبّةِ المحشي، فقالَ وهو يستديرُ إليه قائلاً: الكلامُ صفةُ المتكلّم.

عندهَا تقدّمَ إليه الشّخصُ مُحتقناً، فتدخّلَ الرّكابُ، ومنعُوهُ من الوصولِ إلى السّائقِ، وأجبرُوهُ على النّزولِ.

نزلَ الشّخصُ تاركاً صوتَهُ المُوجّهَ للسّائقِ: سنتواجَهُ يا بن الحرامِ، أنَا الآنَ تعبانٌ، راجعٌ من الشّغل.

* * *

بعدَ تناولِ الغداءِ، وغفوةِ القيلولةِ، نهضَ بزم، فأحضرَتْ زوجتُهُ فنجانَ القهوةِ.

أخذَ يرتشفُ القهوةَ، عندئذ تنَاهى رنينُ جرسِ البابِ، راحَتْ زوجتُه تستقبلُ قيس الذي دخَل مسلّماً على صديقِه.

دخلتْ ريماس المَطبخَ لتُحضرَ فنجانَ قهوة لهُ ريثما يرتدي بزم ثيابَ الخروجِ، عندئذٍ نهضَ بزم، وراحَ يمدُّ يديهِ إلى البدلةِ في غرفةِ النومِ.

عندما خَرجَ بزم من غرفَةِ النّومِ بفائقِ أناقَتِه، كانَ قيس قد باشرَ تناولَ فنجانِ القهوةِ للتوّ من يدِ ريماس.

جلسَ بزم إلى جانبِه حتى رشَفَها مع تدخينِ سيجارةٍ، وخَرجَا صوبَ قاعةِ المعارضِ في المركَزِ الثقافيّ.

دخلاَ المعرضَ، عندئذ أدرَك بزم بأنّهُ يحتاجُ إلى وقتٍ لابأسَ بهِ حتى يتأمّلَ اللّوحاتِ لوحةً لوحة.

بعد نحو نصف ساعة من التّأمل خرجَ برفقَةِ قيس، أمامَ البابِ لفتَ نظرَهُ دفترٌ يكتبُ الَزّوارُ انطباعَاتهم عن المعرضِ، فحملَ القلمَ وجلسَ على كرسيّ يدوّنُ ما تركَ المعرضُ لديهِ من انطباعٍ:

اللّمساتُ الجماليّةُ هبةٌ يتمتعُ بها أناسٌ دونَ غيرهم، وهي لمساتٌ إكراميّةٌ منها ما تكونُ ظاهرةً، ومنها ما تكونُ باطنةً.

والجمالُ قيمةٌ حقيقيّةٌ يمكنُ أن يظهَرَ على الإنسان، والحيوان، والنّبات والجماد، بيدَ أنّ جمالَ الإنسان يتميّزُ بأنّهُ أكثرُ تأثَيراً، وأكثرُ قيمةً ذلكَ لأنَّ الإنسَانَ ذاتَه أكثرُ تأثيراً، وأَكثرُ قيمةً.

ما هو مدهشٌ في علاقة الإنسان بالُمكتشفات التي تُحققُ له متعةً، هو أنّهُ كلما اكتشفَ متعةً، فتَحتْ لهُ بَاباً إلى مُتعةَ أخرى، كنتُ أظنُّ بأنْ لا مُتعةَ تقفُ إلى جانب متعة القراءة، وفيما بعد اكتشفَتْ متعةَ الاستماع إلى الموسيقى، ثم متعة قراءةَ الألوانَ، ثم متعةَ قراءة اللّوحة التشكيليّة التي رسَمَها رسّامٌ أحمقٌ، أو رَسّامٌ بالَغُ العبقريّة.

لنفرضَ أنّ دهّاناً يقومُ بطلي أحد الأبنية، وفجأةً سقطَتْ من يده الفرشاةُ، فنزلَ من السلّم، وحمَلَ الفرشَاةَ، وخَطرتْ له فكرةُ أنْ يضعهَا على شكل أبيض قبل أن يَستأنفَ عملَهُ، ثم مع مرور السّنوات وهو يقومُ بذات العمليّة كلّما سقطتْ منَ يده الفرشاةُ، خطرَتْ لهُ فكرَةُ أن يُقيمَ معرَضاً تشكَيلياً لما تجمّع لديه منَ أشكال وتعابير، ألا يستحقُّ منا هذا الشّخصُ أنْ ننظرَ إلى تلك الانفعَالات التي عبرّتْ عنها عمليَّة السّقوط، ألا يُمكننا أنْ نرى انفعالاتَ الفرشاة وَهي تتألّمُ من وقع السّقوط وتَقولُ شيئاً ما من خلال التّكرَار، وبقعُ الدّهان التي تجمّعتَْ على الأرَض، ألا تقولُ شيئاً للفرشاة، وأيضاً فإنّ الفرشاةَ وهي تقعُ على شكلٍ أبيضَ ألا تقولُ لهذا الشّكلِ شَيئاً؟

إذا كانَ الأمرُ خلافَ ذلك، فما الذي يدفَعُنا لنصغِي إلى امرأةٍ تقرأُ خطوطاً وأشكالاً من فنجانٍ احتسيناهُ؟

ما الذي يدفعُنا للنّظر إلى عرّافة في إحدى شوارعِ القدس، أو ستوكهولم، أو الجيزة وهيَ تقرأُ الكفَّ، أو نُصغي إلى شَخصٍ يقَرأُ ما خلفَ سطرٍ كتبهُ رجلٌ ما.

إن قسمات وجه ما تقدّمَ لنا قراءةً، ونبراتُ صوت ما تقدمَ لنا قراءةً، وحركاتٌ غريبَةٌ تَصدرُ من شخصٍ ما تقدمَ لنا قراءةً.

كنت أريدُ أن أقولَ بأنّ الفنّ التشكيليّ يقدمُ لنا فرصاً ذهبيّةً لقراءةِ ما لا تُقدمهُ لنا السّطور.

الفنُّ التشكيليُّ لغةٌ لونيةٌ ورسميةٌ وفكريةٌ يسعى العاملُ بها إلى التّعبيرِ عن حالة تجتَاحُهُ، والأمرُ لا يتوقّفُ أمامَ هذا التّعبيرِ الذاتي فحسب، بلْ يتجاوزُهُ إلى سعي الفنّ ذاته للتعبيرِ عن حالة لاشعوريّة يعيشُها الفنّانُ، هذه الحالةُ التي لا يقصدُ الفنانُ لتّعَبيرِ عنها في عمله، لأنّه يقصدُ التّعبيرَ عن حالة أخرى دفعَتْهُ ليشرعَ في وضعِ هذه الأفكارَ بلغة الفنّ التشكيليّ التي تتجَسدُ بهيئةِ لوحةٍ سواءَ أكانتْ فنَيّةً أو غير فنيَة.

هنا تبقَى المسألَةُ في عُهدة المُتلقّي الذي يأتي إلى معرضِ الفنّ التشكيليّ ويشاهد اللوحةَ، ويكتشفُ تَلكَ الأبعاد التي تَظهرُ أمامَ حاسّة الذوق لديه، وهو يتأمّلُ معالمَ تلك اللّوحة دونَ أن يسمحَ للفنانِ أنْ يفسَدَ لديهِ هذه المُصارحَةَ التي تبثُّها اللوحَةُ لحاسّةِ الذوقِ لديه.

إنّ اللوحةَ هنا تتمكنُ من قراءَته قبلَ أن تَسمحَ لهُ بقراءَتها، وتوحي إليه بأنّها تمكّنتْ من قراءَته واكتشَفَتْ سراً من أسرارِه قبلَ أن يُدركَ بأنّهُ تمكَنَ من قراءَتها واكتشافِ سرٍّ من أسرارِها.

هنا تدخلُ مع اللّوحة إلى حديث في خلوة، فتحدّثكَ وتحدّثُها في حين يكونُ الفنان الذي ينظرُ إليكمَا في وادٍ آخرٍ دونَ أن يسمعَ أو يرى أوَ يحدس بما يدورُ بينكما.

لكنْ مرةً أخرى عليكَ أنْ تكونَ حذراً من تدخّل هذا الفنان برمي كلمة قد تتسبّبُ في إفساد روحِ هذا الانسجام بينكَ وبينَ لوحته، خاصةً إذا كانَ هذا الفنانُ به شيءٌ من حمق، وعندئذٍ يُمكنكَ أن ترفَعَ إصبعَي الإبهامِ والسّبابةِ إلى أذنه وتُبعدَهُ عنكما.

اللوحةُ هي جزءٌ من مكوّنات هذا العالَم وتمتازُ بما يمتازُ به أيّ مقوّم من مقوّمات هذا العالَم الذي انطلَقتْ منهُ وتأثّرتْ به، وتريدُ أن تُبادلَهُ هذا التّأثرَ من خلالِ عملية السّعي لتركِ شيءٍ من التّأثيرِ عليه.

عندمَا تنظرُ إلى شخص لأوّل مرة، تتأمّلُ ملامحَهُ، تصغي إلى صوته تنظرُ إلى مشيه، ترنُو إلى حركاته، فإنّك تكتشفُ خصائصَ هذا الشّخصَ بما تحملُهُ من مفهوم تجاهَ تقييمِ الأشخاص، هذا المفهومُ الذي يختلفُ عن مفاهيمٍ أخرى يؤمنُ بها آخرون.

لكن عندمَا يقذفُ شخصٌ تقييماً مُباشراً إلى هذا الرّجل مع نظرتكَ الأولى إليه، فإنّهُ يتدخلُ ليفسدَ عليكَ اكتشافَكَ الذوقيّ والمعرفيّ والجماليّ والحسيّ، ويحرمكَ من عمليةِ تقييمِ الشّخص وفقَ مفهومكَ الخاصّ تجاهَ تقييمِ الناس مما تكوّن لديكَ نتيجةَ تجاربك وعلاقاتكَ وتاريخكَ الاجتماعي والإنسانيّ والمعرفيّ الذي تقفُ عليه.

هنا يكونُ من حقّكَ أنْ تقومَ بما قمتَ به نحو الفنانِ في قاعةِ العرضِ تلك وأنتَ تدافعُ عن حقّك في عمليّةِ الاكتشافِ والتقييم.

الأمرُ لا يختلفُ كثيراً بالنّسبة لوجودكَ في حديقَة والاستمتاعَ بأنواعِ الزّهور، واكتشافِ جمالياتها، ثمّ يأتيكَ شخصٌ فيفسدَ عليكَ متعتكَ بقذفِ مفهومٍ لديه بحقّ هذا النوعِ أو ذاك من الوردِ التي تَستمتعُ بالنّظرِ إليها، وشمّ رائحتها.

كذلك عندَما يراكَ شخصٌ وأنتَ تحملُ روايةً جديدةً وترغبُ في قراءتها، فيخبرُك بأنّهُ قرأها، ويبدأُ في شرحِ مضمونها حسبَ مفهومه الذوقيّ والثّقافي، وقد يتجاوزُ ذلك إلى الإيحاء لكَ بعدمِ قراءتها، أو يشجعكَ على قراءَتها من منطلقِ ثقافتهِ المحدودةِ في تلقي ذاكَ النص الرّوائي.

عندما انتهى من الكتَابة، قفزتْ زميلتُه /تشريق/ إلى ذاكرته بقوة في تلكَ اللّحظة، وخطرَتْ لهُ فكرةُ أنْ يهدي هذه الكلمات التي كَتبَهَا إلى تلك الزّميلة، فخَلعَ الصّفحاتِ من الدّفترِ وسط دهشةِ الفنّان والحضورِ، ثم طواهَا، ووضعَها في جيبهِ.

*   *   *

في صبيحةِ اليومِ التالي، وعند الدّخول إلى مكتبه في الدّائرة، وقعَتْ عيناهُ على /تشريق/ زميلتُه في العمل، وهيَ فتاةٌ فيَ الخامسةَ والثّلاثين من عمرِها، منذُ عشر سنواتٍ تعيّنت في الدّائرةِ بموجب شهادتِها الجامعيّة.

كان بزم كلّما رآها شعرَ بحالة من الارتياحِ، فينظرُ إلى جمال وجههَا، ويستمعُ إلى نبراتِ صوتها، أحياناً يدخُلُ حالةً يشعرُ فيها بأنّهُ يبادلُها كلاماً سحريّاً شديدَ الحميميّةِ والخصوصيّةِ من خلال النّظرات.

لكنّ شعورَهُ نحوهَا غدا أكثرَ حميميّةً في موقفِهَا يومَ الحادثِ، أحسّ بأنّها مُرتبطةٌ به بأحاسيسِها.

عشرُ سنوات لم يجرُؤ فيها على قول كلمة يرغبُ في قولهَا لها، ويدركُ أنّها أيضا تعجزُ، أو لا تملكُ شجاعةَ أنْ تقولَ له تلكَ الكلمةَ.

أحياناً كانَتْ تدخلُ مكتبَهُ في الحادية عشرة صباحاً تحملُ /صندويشة كبد/ وتقدّمها إليه بشكلٍ خاصّ من بينِ جميعِ الزّملاءِ قائلةً: هذه هديّةٌ منّي لك يا أستاذ بزم.

يتناولُ الصندويشةَ من يدِهَا، ويوصي ظرّوف أنْ يُحضرَ إبريقاً من الشّاي.

يوجّهُ كلامَهُ إلى زملائِه: تفضّلُوا يا شباب.

فيرُددُون بأصواتٍ مُتعاقبةٍ: صحة وعافية يا أستاذ بزم، صحة وهنا يا آنسة تشريق.

عندَما سمعَتْ تشريق بالحادثِ الذي وقعَ، أجرَتْ معهُ اتّصالاً بهاتفِها الخليويّ لتطمئِنّ عليه.

لبثَتْ راكضةً بهلعٍ بين الطّوابقِ، وهي تتصلُ به.

حتى أنّ قيس عندما جلسَ كي يستريحَ، رفضَتْ الجُلوسَ، وهي تُنادي بصوتها: بزم.. لا تَخَفْ، نحنُ معكَ. ثم تُعاودُ الاتّصالَ به، وعندمَا جلبَ قيس طعاماً رفضَتْ أنْ تضعَ لُقمةً واحدةً في فمها.

ولم يصعدْ الدّم إلى وجهِهَا إلاّ عندما شاهدَتْهُ رغمَ المأساةِ التي وقعتْ بين الجميع في تلك اللّحظات.

وعندما أمضىَ شهراً في البيت، كانَتْ تشريق تزُورُهُ كلّ أسبوعٍ مرتين حاملةً لهُ بعضَ الهدايا المُتواضعَة، كانَتْ تجلبُ معها أمّها أحياناً، وأحياناً تصحبُ زميلتَهَا في الدّائرة /سما/.

إنّها المرأةُ التي دوماً كلّما رآهَا شعرَ بأنّهُ يريدُ أنْ يقولَ لها شيئاً، وشعرَ بأنّها تريدُ أن تقولَ لهُ شيئاً منذُ أنْ وقعتْ عيناهُ عليها أوّل مرةٍ في الدّائرة.

ذات ليلة عندما قرأ قصيدةً، ولفتَتْ نظرَهُ بقوةٍ عاطفتُها، أحسّ بأنّه لابدّ من أنْ يقرأها لـ تشريق.

كتبَ القصيدةَ بخطّهِ، ووضعَها في جيبهِ حتى يُعطيها لهَا عندمَا يراهَا في الدّائرةِ.

لبثتْ القصيدةُ نحو أسبوعين في جيبه وهو يَتردّدُ في ذلك، وأحياناً يشعُرُ بأنّهُ لا يمتلكُ الشّجاعةَ الكافيةَ لإعطائهَا قصيدةً تحملُ كلّ تلكَ العاطفة، وأحياناً أخرى يخافُ أن ترفضَ، وتَفسدَ روحُ العلاقَة بينهُما، لكن فَي الأُسبوعِ الثّالث، دخلَ مكتبَها، جلسَ قلَيلاً، وعندمَا سَألتْهُ عن أحواله كعادَتها، أجابَ بأنّهُ بخير، ثمّ قالَ بأنّهُ قرأ قصيدةً جميلةً، ويريدُ أَنَ يُهديهَا تلكَ القصيدة إنْ رغَبَتْ في ذلك.

قالتْ بأنّها سعيدةٌ، لأنّها تخطرُ بباله عندما يَرى أو يقرأ أشياءً جميلةً، وشكرتْهُ على تلك البادرة: أنَا ممتنّةٌ يا أَستاذ بزم، وأرجو أن تذكرَني بكلّ ما تراهُ مُناسباً، لأنّني أحَبُّ القراءَةَ.

عندئذٍ أخرجَ القصيدةَ التي كتَبَها على صفحةٍ بيضاء من جيبهِ، وقدّمَها إليها.

فتحتْ تشريق الصّفحةَ وبدأتْ تقرأُ بشوقٍ:

تعالِي عيشي معي وكونِي حبيبتي

ولسوفَ نجرّبُ كلّ المسرّات المُمكنة

التي تهبُها الوديانُ والبساتينُ والتلالُ والحقولُ

والتي تمنحها لنا الغاباتُ ومُنحدراتُ الجبالِ

لسوفَ نَجلسُ أيضاً فوقَ الصّخورِ

ونرى الرّعاةَ وهم يغذُّونَ قطعانَهُم

قُرب الأنهارِ الضحلةِ وعلى مَساقطِهَا

تصدحُ الطّيورُ بأغانِي الغزلِ الرّخيمةِ

ولسوفَ أصنعُ لكِ سريراً من الأزهارِ

وأقدّمُ لكِ آلافاً من الباقاتِ العَطِرةِ

وقبّعةٌ مَنسوجَةٌ منْها وثوباً فاتناً يكونُ لكِ

مطرّزاً بأكملِهِ بأوراقِ الآسِ العطريّةِ

وعباءَةٍ منسُوجةٍ من الصّوفِ الأكثرِ نعومةً

الذي سوفَ أجتزّهُ من حُملاننَا الجميلةِ

وسأصنعُ لكِ خُفّاً رائعاً كي يَقيكِ البردَ

مع إبزيم من الذّهبِ الأكثرِ نقاءً

وأيضاً زتاراً من القشّ وبراعمِ اللبلابِ

مع مشابِك مرجانية وأزرار كهرمانية

فإذا أمكنَ لهذهِ المسرّاتِ أنْ تثيرَكَ

فتعالِي عيشِي معي وكونِي حبيبتي

لسوفَ يرقصُ الرُّعاةُ العاشقونَ ويغنون

في كلّ صباحٍ من شهرِ أيار من أجلْ أن تفرحي

قبلَ نحو ثلاثة شهور دخلَتْ عليه تشريق شاحبةً، وقالتْ بأنّها تُعاني نوباتٍ من الاكتئابِ. في تلكَ اللّحظاتِ نظرَ إلى عينَيها، وسالَتْ دموعٌ من

عينيه، ولأوّل مرّة منذُ الحادث أحسّ برغبة في الكلام، رغبَ بقوّة فيما لو تحدّثَ نصفَ ساعة وعادَ إلى صمته، كان سيقولُ لها أشياءً كثيرةً خلالَ النّصف ساعة تلك، كانَ سيفعلُ أيَّ شيءٍ حتى يُخففَ عنها ولو قليلاً.

تقدّم إليها، أخرجَ تلكَ الصّفحات المطويّة بعناية، وقدّمَهَا إليها، ثمّ مضىَ بخطوات واثقة نحوَ مكتبه.

دخلَ بزم المكتبَ رافعاً كفَّهُ بالسّلام على زملائه، بعدَ قليل علا صوتُ المدير كعادَته من الطّابَق الثاني، صوتُه الذي يملأُ ممرّات الدّائرة وهو يوبّخُ أحدَ المُستخدمين، أو أحدَ الموظفين، أو يصرُخ في وجه أحد المراجعين، وإن عانَدَهُ المُراجعُ، رفعَ سمّاعةَ الهاتف واتّصلَ بالشرّطَة قائلاً بأنَّ هذا المراجعَ يُزعجُهُ في عمله.

قال حاجم: لا أعرفُ إنْ كانَ يتحدّثُ مع الشّخص الذي يقفُ في مكتبه، أم مع جميع الموجودينَ في الدّائرة؟

قالت إيبلا: يظنُّ بأنّهُ سَيّدُ كلّ مَن يدخل هذه الدائرةَ، أتحدّاهُ إنْ كانَ يستطيعُ أنْ يرفَعَ صوتَهُ على زوجته مثلمَا يرفعُهُ هُنا.

قال قيس: ربّما ينتقمُ منّا هُنا لأنَّ زوجتَهُ ترفعُ صوتَها عليه في البيت، فلا يجد غير المراجعين (يفش خلقه فيهم).

عندمَا انتهى الدّوامُ قال لقيس: اليوم ريماس طبخَتْ رأسَ خروف، ما رأيُكَ بالغداء عندنا؟

قال قيس: صحة وعافية، اليوم أختكَ أم تمارة عزمَتْ أهلَها على الغداء.

عندَ السّاعة الثالثة والنصف وصلَ بزم إلى البيت بسيّارة الدّائرة، كانَتْ ريماس قدْ جهّزتْ الغداءَ.

بدّلَ ثيابَهُ، وتمدّدَ قليلاً للراحَة نحو نصف ساعة، ثم نَهضَ غسلَ يديه وجلسَ مع الأولاد على سفرة الغَداء المكوّنِ مَن رأسِ الخروفِ وأحشائه المحشوّةِ بالرزّ، ومَرقَة حبّاتَ الحمّص.

تناولَ بزم في البدء بعضَ السلطة، وقرناً من الفليفلة الخضراءِ الحلوة، ثمّ بعضَ قطعِ الفجلِ، وبعدَ ذلكَ قالَ: جدّ الجدّ.

وغدا يتناولُ من لحمِ الرّأس والأحشاء اللّذيذة التي طبختْهَا ريماس على نار هادئَة بدّلَ طنجرةَ الضّغطِ حتّى تنضجَ مع الرأسِ بشكلٍ جيّدٍ ودونَ ضغطٍ.

مدّ يدهُ إلى لسانِ الخروفِ، وسحبَهُ من الفمِ ليصبحَ اللسانُ بين يديه. نظرَ إليهِ وقارنَهُ للَحظاتٍ بلسَانِ الإنسانِ.

وبعدَ قليل حوّلَ اللسانَ إلى قطع، ووزّعهَا على الأولاد والزّوجة، وتناولَ هو الآخرُ قطعةً وهو يشعرُ بأنّهُ تناولَ قطعةً مميزةً مَن الخروفِ.

عندمَا فرغَ من الطّعامِ، راحَ إلى المغسلةِ يغسلُ يديهِ بالصّابون، ولا يدري لماذا راودَتْهُ رغبةً لينظُرَ إلى لسانه.

عندئذ فتحَ فمهُ بشكل جيد، ومدّ لسانَهُ حتّى يرى ما الذي تغيرّ فيه حتّى توقّفَ عن النّطق، لبثَ ينظرُ حتى سمعَ وقعَ خطوات، فتناوَلَ المنشفةَ وخرجَ ليرى ابنتَهُ /آلاء/ تتقدمُ إلى المغَسلة لتغسلَ يديهَا.

تمدّدَ في غرفة النّوم لاستراحة القيلولة، لكنّ اللّسانَ بقي في ذاكرَته، اللّسان الذي يمكَنُ لهُ أنَ يُقيمَ الدّنَيا ويقعدَها ببعضِ الألفاظ، اللسانُ الذَي يُشعل ناراً ويطفئها ببعضِ الكلمات، اللّسان الذيَ يشعلُ عداوةً أبديّةً، والذَي يصنعُ صلحاً أبدياً ببعَضِ الحرَكة.

ينظُرُ كيفَ أنّ اللسانَ يمكنُ لهُ أن يعبقَ بأطيب الحديث، ويمكنُ لهُ أن ينزلَ إلى درجات سفلى من ألفاظ بذيئَة. يمكنُ لهُ أنَ يكيّلَ الشتائمَ والسّبابَ، وعباراتِ الاستفزازِ، يمكنُ لهُ أنْ يوجهَ كلماتٍ طيّبةٍ قويّةٍ تنتشيِ لهَا القُلوبُ والعقولُ.

القسم الثالث

زُهورُ الوفاءِ

جلسَتْ الجدّةُ نجاة جوارَ حفيدتها منار حتّى تروي لهَا قصّةً جديدةً ريثما تعودُ أمُّها التي أخذَتْ أختَها الصّغيرةَ براءة إلى المستوصفِ من أجلِ تلقيحِهَا.

قالت لها: اليوم يا حفيدتي الصغيرة أروي لكِ قصّةَ الظّبيةِ.

قالت منار: قصصُكِ كلهَا جميلةٌ يا جدّتي، أريدُ أن أتعرّفَ على هذهِ الظبيةِ.

قالت الجدّة: كانَ هناكَ صيادٌ يصطادُ الغزلانَ من الأودية والجبال، وذاتَ مرّةٍ اصطادَ ظبيةً فربطَها حتّى لا تهربَ، ويستطيعَ أَن يصطَادَ غيرها.

هزّت منار رأسَهَا قائلةً: نعم يا جدتــي.

قالتْ الجدة: مرّ رجلٌ من المكان الذي فيه الظّبيةُ، ولمّا رأتْهُ، أحسّتْ بأنّهُ رجلٌ غير عادي، نظراتُها إليهِ جعَلَتْها تشعَرُ بأنّها أمامَ رجلٍ أرسلَهُ اللهُ لنجدتِها.

/رجلٌ ظاهر الوضاءة، أبلَجَ الوجه، لم تَعبه نُحلَةٌ ولم تُزرِ به صُقلَة، وسيمٌ قسيم، في عينيه دَعَج، وفي أشفَاره وَطف، وفي صوته، وفي عنقه سَطع، وفي لحيَته كثاثة، أزَجٌّ أقرَن، إن صَمَتَ فعليه الوقار، وإن تَكلمَ سماَ، علاهُ البهاء، أَجملُ الناس وأبهاهم من بعيد، وأَجلاهُم وأحسنهم من قريب، حلوُ المنطق، فصل لا تذْر ولا هذَر، كأنَّ منطقه خرزات نظم يتحَدَّرن، رَبعة، لا يَأس من طول، ولا تقتَحمُه عين من قِصر، غُصن بين غصنين، محشود محفود، لا عابس ولا مفنّدَ/

عندئذ نادتْ بأعلى صوتِها وهي تنظرُ إليهِ بدهشةٍ: يا سيدي.. النّجدة.

سمعَ الرجلُ صوتَها ودنَا منها فأردَفتْ الظّبيةُ: يا سيدي، لقد اصطادَني ذاكَ الصيادُ وربطنِي هنا.

وقفَ الرجلُ بجوارِها يُلقي نظرةً إليها، ثمّ إلى الصّياد، فقالَتْ الظّبيةُ والدُّموعُ تملأُ عينيها: اَستيقظْتُ باكراً يا سيدي، وكنتُ جائعةً، لم أستطعْ أنْ أُرضعَ صغاري، تركتُها خلفَ ذاكَ الجبلِ وجئتُ باحثةً عن طعامٍ حتّى أعودَ وأَرضعِها.

ثم بلعتْ ريقَها الجافّ واستأنفَتْ: لقدْ وجدتُ طعاماً يا سيدي، تناولتُهُ على عجلٍ وسلكْتُ طريقَ العودة راكضةً، وصوتُ صغاري لا يفارقُ سمعي، وهنا يا سيدي فوجئتُ بهذا الصّيادِ الذي نصبَ لي فخّاً واصطادنِي.

كلّ هذا يا بنتي والرجلُ يستمعُ إلى هذه الظّبية التي استأنَفتْ حديثَها وهي تنظُرُ إليه متوسّلةً: أسألُكَ يا سيّديَ أنْ تشفَعَ لي وتطلبَ من هذا الصّياد أن يفكّ أسري حتّى أذهبَ إلى صغاري التي تتضورُ جوعاً بانتظاري، أرضعها حتى تشبعَ، وأعاهِدُك بأنّني سأعودُ إلى مكانِي هذا بين يدَيَ الصّيادِ.

نظرتْ منار إلى جدّتها قائلةً: هه يا جدتي، هل عادَتْ إلى صغارها؟

قالت الجدّة: طلبَ الرجلُ من الصّياد أن يحلّ رباطَها لتذهَبَ فترُضعَ صغارها وتعودَ، وتعهّدَ للصيّاد بأنّهُ يكفلُ عودةَ الظّبيةِ، ويتحمّل مسؤوليّة عدم عودتها.

أمامَ ذلكَ راحَ الصّيادُ يحررُ الظّبيةَ التي هرعتْ كالسّهمِ حتّى توارَتْ عن الأنظارِ خلفَ الجبلِ.

بعد حينٍ من الانتظار تراءَتْ الظّبيةُ من خلف الجبل حتى وصلَتْ إلى ذات المكان الذي كانَتْ مَربوطَةً فيه، وتقدّمَ الصّيَادُ ليربطَها، لكنّ الرجلَ أرادَ أنْ يكافئَها على وفائِها بعهدِهَا معهُ، فطلبَ من الصّياد أن يُطلقَ سراحَهَا ثانيةً.

استجابَ الصّيادُ لتوجيهِ الرّجل بسرورٍ، فهرعَتْ الظّبيةُ وهي

تشدو: حقّاً إنّك رحمةٌ مهداةٌ يا سيدي، وراحَتْ تروي ما وقَعَ معها لِصغارهَا.

رحابُ الطُّفولةِ

في الصّباحِ استفاقَتْ زينبُ من النّوم بنشاط وهي تدركُ أنّها اليوم سوفَ تخرُجَ مع أمّها إلى سوقِ المدينةِ كي تشترِي لهَا ثيابَ العيدِ الذي سوفَ يحلُّ بعد يومين.

بعد تناول الطّعام راحَتْ أمّها تُلبسها ثيابَ الخروجِ، فقالتْ زينب في أثناءِ ذلك: كمَ هو العيدُ جميلٌ يا ماما.

قالت أمُّها: ماذا تحبّينَ في العيد يا زينب؟

قالت: أحبُّ ثيابَ العيدِ الجديدة، وتقديمَ سكاكرِ العيد للأطفالِ الذين يأتُون لمعايَدتنا، وزيارةِ الأقرباء.

قبّلتها أمُّها، ثمّ أمسكتْ بيدِهَا وخرجَتَا إلى حيث موقفُ الباصِ الذي أخذَهُما إلى حيث سوقِ المدينةِ.

كانَ السُّوقُ مزدحماً بالنّاسِ والسّياراتِ، والمَحالُّ مزيّنةٌ بهذه المُناسبةِ.

أخذَتْ زينب تمشي بفرحٍ عارمٍ ويدها بيدِ أمّها كأنّها فراشــةٌ وليدةٌ للتوّ في قلبِ الرّبيعِ، تنظرُ إلى المحلّات العامرةِ بالثّيابِ الجديدة، وألعابِ الأطفالِ دونَ أن تتركَ يدَ أمّها.

فجأةً وقعتْ نظراتُها على رجلٍ يقفُ أمامَ محلٍ، ويقذفُ عقبَ سيجارَتِهِ على الأرضِ.

اعتراهَا إحساسٌ مفاجِئٌ بأنّ المدينةَ تحوّلتْ إلى بيتٍ صغيرٍ، هو بيتُهَا.

تسمّرتْ بها قَدمَاها في الأرضِ، نظرَتْ إليها أمُّها مُستفسرَةً عن سببِ وقُوفِها المُفاجِئ؟!

تقدّمَتْ زينب نحو عقبِ السّيجارةِ المَرميّ على الأرضِ ويدُها ماتزالُ بيدِ أمّها.

مالَتْ إلى العقب وحملتْهُ باليد الأخرى، ثمّ اتّجهتْ صوبَ حاويةٍ صغيرةٍ موضوعةٍ على الرَّصيفِ، ورمتهُ في الحاويـــةِ.

ابتسمَتْ أمُّها لِما قامتْ بهِ، وأكملَتْ بها المَسيرَ بحثاً عن الثّيابِ.

في هذه الأثناء كانَ الرّجلُ الذي ما يزالُ واقفاً أمامَ ذات المحلّ، يشعرُ بشيءٍ من الخطأ الذي ارتكبَهُ عندما رمى عقبَ السّيجارةِ على الأرض، وقد رأى ما قامَتْ زينب بهِ نحو العقبِ.

أحسّ الرجلُ بأنّهُ ارتكبَ ذنباً ما كانَ عليه أن يرتكبَهُ، وللحظة اعتراهُ شعورٌ بأنّ المدينةَ ليستْ لهُ وحدَهُ، بل هي لكلّ أولئك الذينَ يقيمونَ فيها.

مضى الرّجلُ محاولاً اللّحاقَ بزينب وهو يُنادي وسطَ الزّحامِ: مهلاً يا بنتي.

التفتَتْ زينب وإذا بنظراتها تقعُ على ذاتِ الرّجلِ الذي بَدا بالقُرب منها.

قالَ الرّجلُ موجّهاً كلامَهُ لأمّ زينب: أرجو أنْ تسمحِي لي يا سيدتي أنْ أبلغكِ تقديري على هذه التّربيةِ.

شكرتْهُ الأمُّ على ذلك، فقالَ الرجلُ موجّهاً كلامَهُ إلى زينب:

أشكرك يا بنتي، ثمّ بعدَ صمتٍ أردفَ يقولُ: أعدُك بأنّني سوفَ أقلع عن عادةِ التّدخين بعدَ اليومِ.

في تلكَ اللحظة، أخرجَ علبةَ السّجائرِ من جيبه، ومضىَ نحو ذات الحاويَةِ ورمى العلَبةَ فيها، ثمّ مضى في الزّحمةِ حتى تَوارى عن أنظَارهما.

عندئذٍ مالتْ أم زينب وقبّلتها قائلةً لها: أنا فخورةٌ بكِ يا زينب، وراحَا يكملانِ مشوارهُما للبحثِ عن ثيابِ العيدِ.

كرةُ الذّهبِ

منذ ثلاثة أيّام والحركةُ تدبُّ في بيت يزن المجاورِ لبيتِ صديقِه يقطين، حركةٌ توحي بأنَّ ثمّةَ حفلةً تـُقامُ في البيت.

الضحكاتُ تعلو، حركةُ الفرحِ تتداخلُ بالأصواتِ المُختلفة.

كل هذا ويقطين يعيشُ في حيرة من أمره لأنّ صديقَهُ يزن مثله في العاشرة من عمره، وليسَ من المعقُول أنْ يكَونَ قد تزوّجَ، وهو الوحيدُ الذي يعَيشُ مع أبَيه -مطهّر الأطفال- الذي يخرجُ صَباحاً إلى القرى ولا يعودُ قبلَ حلول الظَّلام، وأمّه التي تَعملُ في معمل الغزْل والنّسيج، بعدَ أنْ تزوّجتْ أختُهُ إكرام منذ سَنتين. يومئذٍ دبّتْ حَركةٌ احتفاليّةٌ مشابِهَةٌ لهذه الحركةِ في البيت.

عندمَا تكونُ المدارسُ مفتوحةً، اعتادَ يقطين أنْ يعودَ مع صديقِه من الدّوامِ ويمضي في بيتِه ساعةً حتى تعودَ أمُّه من دوامها.

أمّا في عطلة الصّيف، كما في هذه الأيّام، يزورُه ساعة خلالَ فترة الظّهيرة ليُسلّيهَ، أو يدعُوَهُ لزيارته ريثمَا تعودُ أمُّهُ فتراهُ في بيت صديقِهَ يقطين، إضافةً إلى ذلك، فإنّه أحيانَاَ يراهُ أمامَ الباب، فيذهب ليتحَدّثَ معَه قليلاً، أو يراهُ يذهبُ إلى الدُّكانِ المجاورِ يشتري متاعاً طلبَتْه منهُ أمُّه فيجري ليصطَحبَهُ.

مرّت ثلاثةُ أيّامٍ لم يخرجْ أحدٌ فيها من البيتِ، يتذكرُ يقطين أنّهُ ذاتَ مرّةٍ سألَ صديقَهُ يزن عن أبيهِ الذي يخرجُ كلّ يومٍ، ولا يبقى يوماً واحداً في البيتِ

فقالَ لهُ: أبي كلّ يوم يطهّرُ الأطفالَ في القرى البعيدةِ.

قال يقطين: من أينَ يأتِي بالأطفالِ كل يومٍ ليطهّرهم؟

ضحك يزن وقال: سألْتُ هذا السؤّالَ لأبي منذ سنةٍ.

قال يقطين: هه، وبِـم أجابَكَ؟

قال يزن: قال: ما دامَ الأطفالُ يولدون كلّ يومٍ، فإنّ عملي يتجدّدُ كل يومٍ، عندما لا يولد الأطفالُ، فإنّ عملي ينتهي.

عندئذ خطرَ ليقطين أنْ يطرحَ هذا السؤّالَ على أبيهِ الذي يعملُ في صناعةِ المدافئِ منذُ أنْ فتح يقطين عينيهِ على الحياةِ.

في المساءِ قال يقطين لأبيه: يا أبي إلى متى سَتصنَعُ المدافئِ؟

قال وهو يطبطبُ على كتفه: ما دامَ الشتاءُ يأتِي، فإنّ عملي مُستمرٌّ، يتوقّفُ عملي عندمَا لا يأتِي الشّتَاءُ.

في اليومِ التّالي أخبرَ يقطين صديقَهُ يزن بذلكَ فضحكَا.

ها هي ثلاثةُ أيّام تمضي دونَ أن يخرجَ أحدٌ فيها من البيت، ثلاثَةُ أيّام والاحتفالُ مستمرٌ، وأيُّ احتفالٍ هذا الذي يستمرُّ ثلاثةَ أيامٍ.

دنا يقطين من بابِ صديقه، مدّ يدهُ ليطرقَ البابَ فتردّدَ مع سماعِ الأصواتِ ودبيبِ الحركَةِ والتّصَفيقِ.

عادَ إلى البيت كئيباً لأنّه منذ ثلاثة أيّامٍ لم يرَ صديقَهُ يزن الذي حنّ إلى حديثِهِ، فلم يملُكَ نفسهُ من مدّ يدهِ إلَى سماعةِ الهاتفِ والاتّصال بهِ.

عندما رُفعت السّماعةُ في بيت يزن، تكاثَفَ الصوتُ في سمعِ يقطين

فقال: أنا يقطين، أريدُ أنْ أتحدّثَ مع يزن.

بعدَ قليلٍ تناولَ يزن السّماعةَ من يد أمّه ليسمعَ صوتَ يقطين مُعاتباً إيّاهُ على هذهِ القطيعَة فقالَ يزن: لا تؤاخذنَي يا يقطين نحنُ فعلاً نحتفَلُ منذ ثلاثة أيامٍ، حتى أَمي أخذتْ إجازةً وتركَتْ عملها، وأبي لمْ يخرجْ من البيتِ بسببِ هذه الفرحةِ التي دَخلتْ بيتنا.

قال يقطين بدهشةٍ: وما هي مُناسَبَةُ الاحتفالِ؟

قال يزن: مناسبةُ وجودِ كرة ذهبٍ في بيتِنا.

قال يقطين بدهشةٍ أكبر: كرةُ ذهبٍ؟!

قال يزن: أجلْ، كرةُ ذهبٍ. تارةً يقذفُها أبي إلى أمّي، وتارةً تقذفُها أمي إليَّ، وتارةً أقذفها إلى أبي.

ثمّ استأنَفَ يقولُ بنبرة مبتسمَة: لو تعلمْ يا يقطين كَمْ أنّ كرةَ الذّهبِ هذه مُسلّيةٌ في البيتِ، الآنَ أتخيّلُ كَيفَ كُنّا نعيشُ في هذا البيتِ دونَ كرةِ الذّهبِ.

أغلقَ يقطين السّماعةَ، وفي المساءِ طلبَ من أمّهِ أنْ تحضرَ مصاغَها لأمرٍ هامٍ.

أحضرَتْ أمهُ الصّيغةَ وهي في دهشة من أمرِهَا وترنُو إليهِ وإلى أبيهِ الذي تولّتْهُ ذات الدهشةِ لهذا المطلبِ الغريبِ من نَوعهِ.

تناولَها يقطين ولفّها بقماشٍ لِتُصبحَ على شكلِ كرةٍ وقال: لنلعب بكرةِ الذّهبِ كما يفعلُ جيراننا.

قذفَ الكرةَ إلى أبيه، فأحسّ بخدشٍ في يده وهو يلتقطُها، وقذفَهَا إلى أمّهِ التي أحسّتْ بخدشٍ وهي تلتقطُها لتقذفَهَا إليهِ ويحسَّ بخدشٍ.

بعد قليلٍ من اللّعب تحوّلتْ الخدوشُ إلى جروحٍ، فتوقّفَ يقطين عن اللّعبِ وذهبَ إلى حجرتِه ينامُ كئيباً.

في صبيحة اليوم التّالي، فتحَ يقطين عينيه، ولم يسمعْ الضجيجَ من بيت يزن، سرّت رَعشَةُ فرحٍ في أوصَاله وهو يتخَيّلُ أنّهُ سوفَ يرى صديقَهُ منَ جديدٍ، ويسألَهُ عن سببِ الاحتفالَ.

بعد قليلٍ فتحَ البابَ وإذ بيزن يقفُ جوارَ بابِ بيتِه.

ابتسَم يقطين وكأنّهُ عثرَ على صديقه بعدَ أنْ كانَ تائهاً عنهُ، دنَا إليه وهو ينظرُ إلى يديهِ دونَ أن يقعَ على خدشٍ أو جرحٍ وقالَ: هل انتهى الاحتفالُ يا يزن؟

قال: أجلْ انتهى. ثمّ أضافَ وهو ينظرُ إلى الجروحِ في يديه:

ماذا أصابَكَ يا يقطين، هل تعثّرتَ بشيءٍ؟!

قال: لا، ولكن كرةُ الذهبِ فعلتْ بي ذلكَ.

قال يزن بدهشةٍ: أيُّ كرةٍ يا يقطين، بعلمِي لا توجدُ لكَ أختٌ متزوجةٌ!

قال يقطين وقد جحظَتْ عيناهُ: وما علاقةُ هذه بتلك؟!

قال يزن: لأنّ أختي إكرام التي أنجبَتْ طفلةً زارتْنَا وأمضَتْ عندنَا ثلاثةَ أيامٍ، فكانَتْ أمي تحملُها وتُناديها: كرةَ الذهبِ.

وكنّا نتبادَلُ حمْلَها ونصفّقُ ونغنّي وننادِيها: كرةَ الذهب.

السلّــةُ

همسَ الرجُلُ لزوجته في دجى اللّيل: لا حلَّ يا زوجتِي العزيزة غير أنْ أحملَهُ إلى إحدى القُرى البعيدة، وأتركَـــهُ هناكَ.

قالتْ: الأمرُ يعودُ إليكَ يا زوجِي العزيز، لكنْ يبدُو أنّ ابنَنَا مُتعلّقٌ به للغايَة، لا أدري ما الّذي سيَحلُّ به إذا افتقَدَ جدّهُ، خاصّةً وأنّهُ اعتادَ على النّومِ في حجرَته، وقدْ سعينَا بكلّ الحيلِ كي نثْنيه عن ذلكَ ولمْ نُفلحْ.

في تلكَ اللّحظات اشتدّ سُعالُ الرّجل العجوز الذي يُقيمُ في حجرَة صغيرة في بيت ابنه، مما جعَلَ حفيدَهُ النّائمَ إلى جوارِه يستفيقُ كالعادة، ويصبُّ لهُ كأساً منَ الماء، وأحياناً يتّجهُ إلى المطبخ، يأَتي ببعض الفاكهَة، ويلبثَان ساهرين يتحدّثَان حتّى يحينَ موعدُ صلاة الفَجر، فيملأُ الطفلُ البالغُ من العمر خمسَ سنوات الإبريقَ لجدّه ويقدّمهُ إليه كي يتوضّأ به، وعندما يُصليّ، يقلّدُهُ في بعضِ الحركات، ثمَّ ينامَان ثانيةً حتى تلجَ أمُّهُ وتقدّمَ طعامَ الإفطارِ لجدّه، فيجلس ويتناول معهُ الطّعامَ.

قال الرّجلُ: اعدّي لي تلكَ السّلةَ الكبيرةَ في الصّباح، وبعدَ أن يتناولَ الإفطارَ، سأضَعهُ بها وأحملُهُ على ظهري حتّى أبلُغَ بهِ إحدى القُرى البعيدةِ، أتركُهُ هناك وأعودُ.

في الصّباحِ وبعدَ أنْ تناولَ الرّجلُ العجوزُ طعامَ الإفطار، حمَلَهُ ابنُهُ ووضَعَهُ في تلك السلّة، وعندما رأى الحفيدُ أنَّ أباهُ قدْ حمَلَ جدّه في تلكَ السلّة وهمّ بهِ بالخروجِ قال: أينَ ستأخُذُ جدّي يا أبِي؟!

هَمهَمَ الأبُ قائلاً: سآخذُهُ كي يعيشَ في إحدى القُرى البعيدةِ.

قالَ الطّفلُ وقدْ استقرّتْ غصّةٌ في حُنجرته: لكنْ يا أبي عندما تضَعهُ هناك، لا تنسَ أنْ تعيدَ معكَ السلّةَ.

توقّفتْ قدمَا الأبِ بهِ تحتَ الحملَ وقال بدهشةٍ: لِمَ يا بنـــيّ؟!

قال: حتّى أحملكَ بها على ظَهري عندمَا تصبحُ جدّاً مثلهُ، وأصبحَ أباً مثلكَ.

الصّوت

كانَ / إقبال / ابنُ جارنَا يبكي بصوت مُرتفع، ويصرُخُ كثيراً، ويزعجُ حتّى الجيرانَ بصراخه في اللّيل والنّهار، وذاتَ ليلة صرخَ كثيراً، ثُمّ نامَ، وعندما استيقَظَ من النّوم صباحاً أحسّ بأنّهُ لا يستطيع أنْ يلفظَ حرفاً واحداً، عندئذ أرادَ أنْ يصرخَ، فلمْ تخرجْ منهُ نبرةُ صوت واحدة، وعندما أرادَ أن يطلبَ من أمّه قطعةَ حلوى، أدركَ عندئذ بأنّهُ فقدَ نعمةَ الكلام. بقي بدون حلوى، وبدون أنْ يتناولَ الطّعامَ، حتّى أنّهُ لمْ يعدْ قادراً على البكاء، فكيفَ يبكي يا مسكين بدون صوت؟ بعدَ يومين من الحُزن على فُقدانِ صوته، أُغمي عليه، فأخذَهُ أبوهُ إلى الطّبيب حتّى يُعالجَهُ.

عاينَهُ الطبيبُ وقال: فَقَدَ إقبال صوتَهُ لأنّهُ يبكي ويصرُخ كثيراً، لقَد هجرَ الصّوت حنجُرتَهُ بسبب ذلك.

عادَ حزيناً مع أبيه إلى البيت وقدْ ندمَ على كلّ ذاكَ الإزعاجِ الذي سبّبهُ لصوته.

عندَ الظّهيرة جاءَتْ المُمرضةُ وحقَنَتْهُ حقنةً حتّى تعودَ إليه قوتُهُ، ثمّ في المساء حقنَتْهُ حقنةً أخرى. في صباح اليوم التّالي خرجَ إقبال مع أبيه وأمّه إلى الحديقَة يبحثُونَ عن الصّوت.

بحثُوا عن الصّوت كثيراً، وفجأةً رأتْ أمُّهُ الصوتَ مُختبئاً بين أوراق

شجرة الخوخ في حديقة البيت، كانَ الصّوتُ حزيناً، يبكي بمرارَةٍ، وهو يرتَجِفُ من البَرد.

قالتْ أمُّهُ للصوت: لماذا زعلْتَ من إقبال، وهجَرتَ حُنجرتَهُ؟

قال الصوت: لقَدْ أزعجَني بصراخه المُستمرّ حتّى مرضْتُ، وهربْتُ منهُ، إنّهُ يُتعبني كثيراً ولا يُريحني.

قال أبوه: إذا وعدتُكَ بأنّهُ لنْ يُزعجكَ مرةً أخرى، هل سَتعود إلى حُنجرته، إنّه مسكينٌ، يجوعُ ولا يستطيعُ أن يطلبَ الطّعامَ، يعطشُ، ولا يستطيعُ أن يطلُبَ الماءَ، إنّه لا يطلبُ شيئاً حتّى مرضَ وأخذنَاهُ إلى الطّبيب، هلْ تريدُ أن نأخُذَه إلى الطبيب كي يحقنَهُ مرّةً أخرى؟

قال الصّوت: إذا وعدَني بأنّهُ لن يستخدِمَني إلاّ لطلَبِ حاجةٍ سوفَ أعودُ إليه.

نظرَ الأبُ إلى ابنه الذي نزلتْ دموعَهُ حُزناً على صَوته، هزّ إقبالٌ رأسَهُ علامةً بالإيجاب وهو يُتمتمُ بينَهُ وبينَ نفسه: أعدكَ بشَهادة أبي وأمي يا صوتي بأنّني لَنْ أزعجَكَ مرّةً أخرى، لنْ أستخدمَك إلا لطلَب حاجة، وسَوفَ أريحُكَ، أعتذرُ منكَ يا صوتي العزيز، وأنا نادمٌ على كلّ ذاكَ الإزعاجِ الذي سبّبتُهُ لكَ، أرجوك عُد إليّ، لقدْ اشتقتُ إليكَ كثيراً.

عندَها نزلَ الصّوتُ من بينِ أوراقِ الشجرة، وعادَ إلى حُنجرةِ إقبال، وعادُوا جميعاً إلى البيت.

في المساء أقامُوا حفلةً بهذه المُناسبة دعُوا إليها أصدقاءَ إقبال، فتحدّثَ لهم إقبال عَن سببِ الاحتفَال.

من يومها لمْ يعُد إقبال يصرُخُ في البيت، ولا يبكي، وعندما يريدُ شيئاً، يطلُبُهُ من أمّه بصوتٍ هادئٍ حتّى لا يهجُرَه صوتُهُ مرة أخرى.

النَمل

عشرونَ سنةً مضَتْ على شراكَتِهما في هذا المَحلّ الذي اتّخذَاهُ لشراءِ وبيعِ القمحِ والشّعيرِ.

في بدء موسم الحصاد يضطرُّ بعضُ المزارعين إلى بيع أكياس مُتفرقة من المحَصُول لأَجلِ تغطَية نفقات الحصاد، وكذلكَ الأَمرُ بالنَّسبة لمنْ تصيبُهُ بضعةُ أكياسَ من القَمح سَواءً عن طَريق الزّكاة، أو عن طَريق العمل برفقة الحصّادة، أو كحصّةٍ صغيرةٍ لا تستحقُّ الشّحنَ والبيعَ بشكلٍ رسميّ.

وكمَا أنّ هؤلاء يحضرُون إلى المكاتب الشّعبيّة الصغيرة في بدء الحصاد، فإنّهم يحضرونَ إلى ذات المكاتب عندَ بَذر الأَرض لشراء البُذور عندمَا يصعُبُ الحصولُ عليها من المؤَسّسات الحَكوميّة بشكلَ رسميّ، كذلك يأتي بعضُ النّاس لشراء أكياس مُتفرقةَ لاتّخاذها مونةً للبيت مثل البرغل، والشّعيريّة، والسّميد، والدّقيق، كما يلجأ مربو المواشي في الحالات الاضطرارية عندَ انعدام العلف في مؤسّسات الأعلاف، فيشترُون الشّعيرَ لمواشيهم خاصّةً في بدء فصل الشّتاء.

إنهُ عملٌ مستمرٌ على مدار السّنة يدرُّ أرباحاً جيدةً عليهما، وكلّ سنةٍ يزدادان ربحاً، ويُصرّان على التّمسكِ بعضَهما ببعضٍ.

مع الأيّام الأولى لاحظَا ظاهرةً غَريبةً في المحلّ، وهي أنّ أفواجاً من النّمل بدأتْ تتسرّبُ إلى المحلّ المُكتظّ بأكياس الحبوب، لكنْ بدلَ أن تَسحبَ الحبوبَ إلى الخارج، فإنّها تأتي حاملةً حبوباً وتضعها في الدّاخل بحيث تتراكَمُ كمّياتٌ هائلةٌ من الحُبوب بين فترةٍ وأخرى داخلَ المحلّ.

عند ذاكَ حاولَ الشرّيكان وضعَ حد للنّمل رغم أنّهُ لا يؤذيهمَا، بل بينَ فترة وأخرى يجمعَان هذه الحبوبَ في أكياسٍ ويبيعَانها بالكيلو لبعض الناس، وأحياناً يتصدّقان بها لبعض الفقراء، بيدَ أنّهمَا لمْ يُفْلحا في منع النّمل على الرغم من رشّ المبيدات، لكنّ النملَ كانَ يُغيرُ مسارَهُ حتّى يجدَ منفذاً للدّخول، عندئذٍ قالَ الناسُ لهما: إنّهُ نملٌ مُباركٌ يأتي ليباركَ لكما شراكتكُما.

وبلغَا قناعةً بأنّ هذا النّملَ هو دليلُ خيرٍ وبركة، فلبثَ الأمرُ على ما هو عليه، بلْ اعتادَا على وجودِ النّملِ كلّ يومٍ وكأنّهُ طقسٌ يومي لابدّ من رؤيته.

كانَا يعرفانِ أنّ الصدقَ هو أساسُ نَجاحهما وثرائهما الذي نَبعَ من هذا المحلّ الذي استأجرَاهُ أوّلَ الأمر لمدّة سنتين، وبعدَ ذلك تمكّنا من شراء مُلكيّته، ثمّ بعد ثلاث سنوات أخرى مع تحسّن العمل وشعورهما بأنَّ المحلّ رُغمَ سعَته بعضَ الشيء أصبحَ يضيقُ بأكياسِ الحُبوب، اشترَيا قطعةَ الأرضِ المُلاصقَة لهُ من الخلف التي تبلغُ ألف متر مربع وجَعَلاهُ مَخزناً تابعاً للمحلّ يجمعان فيه ما يتراكَمُ لديهما من أكياسِ القمح والشّعير خاصّةً في بدء موسم الحصاد، وكذلك يضَعان فيه كميات هائلةً من الأكياسِ الفارغَة لبَيعها إلى المُزارعين في هذا الحيّ الشّعبيّ المجاورِ للمدينة.

لدى فراغِ المحلّ من القمحِ والشّعيرِ واستخدامه كمكتبِ مُراجعاتٍ وحساباتٍ فقَطْ، رأى الشرّيكانِ أنّ النّملَ أيضاً وجَدَ لهُ مَنفذاً إلى حيثُ المخزنِ.

عندئذٍ ازدَادَا قناعةً بأنّ وجودَ هذا النّملِ وبهذه الطّريقَةِ غيرِ المُعتادةِ إنّما هي دليلُ بركةٍ على شراكتِهما.

عشرونَ سنةً من العملِ المُتواصلِ المُخلصِ حتّى باتَ أحدهُما لا يُعرفُ إلا بالآخر، كأنّهما توأمانِ، حتى اعتادَ النّاسُ أنْ يروهما معاً في المُناسباتِ الاجتماعيّةِ صغيرِها وكبيرِها، أفراحِها وأحزانِها.

أمّا عندما يكونُ بارع في مكانٍ ويصدفُ أنّ شريكَهُ لمْ يتمكنْ من الحضورِ معهُ في ذاتِ الوقتِ، وأنّهُ على وشكِ الوصولِ، فإنّهُ يُسألُ بشكلٍ اعتياديٍ وتلقائيّ عنَ غيابِ شريكِهِ برهوم.

- كيفَ الحالُ يا بارع؟

- أحمدُ اللهَ على النعمةِ.

- يهزُّ السائلُ رأسهُ مُستغرباً: وأينَ برهوم، خير إن شاء الله؟!

عندئذٍ يشرحُ لهُ سببَ تأخّرِهِ.

مع هذه الوقائعِ تبينّ لهما أنّ أحدَهما احتلَّ موقعاً هامّاً لدى الآخرِ، إنّهما لا يُسألانِ عنَ أخوتِهما بقدرِ ما يُسألانِ عن بعضِهما البعضِ.

مع تقدُّمِ السّنواتِ باتَ يُضربُ بهما المثلُ في كلّ أنحاءِ المدينة، وكذلكَ يُضربُ المثلُ بتصرفَ النّملِ حتّى أنّ البعضَ لا يكادُ يُصدّقُ ما يَسمعُ، فيأتي ليتأكّدَ كيفَ أنَّ النملَ يخرجُ من المخزنِ فارغاً، ويعودُ إليه محمّلاً بحبّاتِ القمحِ والشّعيرِ، يلتقطُه من الطّرقاتِ، ومن جوفِ الأرضِ، ويأتي بهِ إلى المخزنِ.

وعندمَا يقرّرُ أحدٌ أن يُشاركَ أحداً يقولُ له النّاسُ: إنشاءَ الله مثل شراكةِ بارع، وبرهوم ويرزقكما الله بمثلِ نملهما.

وعلى الأغلبِ فإنّ الناسَ يقولون عن شراكَتهما: الشراكةَ المُباركَة.

أمامَ هذه العلاقة الرّوحيّة في الشرّاكة قرّرَا عدمَ الانفصَال عن بعضهما رغمَ الثّراء الجيّد الَذي باتَا يتمتّعانِ بهِ، فكلٌّ واحد اشترَى عدّةَ محَال تجاريّةٍ في المدينةِ، دونَ أنْ يفكّرَا بالانفَصالِ عن بعضِهما ولو ليومٍ واحدٍ.

وعندمَا يلمّحُ شخصٌ عن سببِ بقائهما معاً يقولاَن ضاحكَين: ومَن يضْمُن لنا استمرارَ البركة في عملنَاَ إذا انَفَصلْنا، ثم يُضيفان: حتّى النّملُ يبارِكُ لنا شراكتَنَا، منذ عشَرينَ سَنةٍ ألفْنَا هذا النّملَ الذي ألفَنَا هو الآخر.

اليوم عندما قدمَ بارع صباحاً إلى المحلّ، فُوجِئ بأمرٍ غريبٍ جعلَ غصّةً ترتفعُ إلى حنجُرتهِ.

توقّفَ ليتأكّدَ من الأمر، عسى أنْ يكونَ العيبُ في نظرهِ، فرأى النّملَ بالفعلِ ولأوّل مرّة منذ عشرين سنة، يخرجُ من المحلّ حاملاًَ حبات القمحِ والشعَيرِ، يخَرجُ حَاملاً، ويعودُ فارغاً في حبلين مُتناسقَين.

لا يدري لماذا وقفَ يتأمّلُ المشهَدَ الحزينَ ويغالبُ الدُّموعَ التي طفَحَتْ تنحدرُ من عينيهِ، ينظرُ بحسرةٍ وكأنّهُ خسرَ كَنزاً خفياً.

لطمَ ركبتَهُ بقوّةٍ وتمتَمَ: لكنْ ماذا حدَثَ؟!

مدّ خطوات باردةً إلى المحلّ، فنهضَ شريكُهُ برهوم مرحبّاً بهِ، وبذاتِ الوقت مُستغرباً علاماتِ الشّحوبِ الباديَةِ على سُحنتهِ.

قال برهوم: عسى أنْ يكونَ الأمرُ خيراً يا شريكي؟

أجابَ بغصةٍ: لا أظنّهُ كذلك.

قال بدهشةٍ: أخبرني ماذا جرَى؟

أجابَ بحزنٍ عميقٍ: يبدُو بأنّهُ اليومُ الأخيرُ لشراكتنا.

قال برهوم: كيفَ تقولُ هذا يا رجل؟!

لم يرد عليهِ بارع، ولكنّهُ دعاهُ إلى الخُروج شطرَ المخزن.

سارعَ الخُطا إلى الخارجِ فأحسّ بصعقةٍ وهو ينظرُ إلى حبلين طويلين شكّلهُما النّملُ وهو يستجرُّ حبات القمحِ والشعير من المَحلّ في حبلٍ، ويعودُ إلى المخزنِ فارغاً في الحبل الثّاني.

عند ذاك جَمُدَ في أرضه وبدأ يتخيّلُ ما حَدَثَ منذ ساعة عندما دخلَ أحدُ القرويين إلى المحلّ وبيدهِ مائةُ بيضةٍ بلديّةٍ يعرضُها للبيعِ.

اشتراها من غلّة المحلّ، وأخذَ يناصفُ البيضَ بينَهُ وبينَ شريكه، في تلكَ اللّحظات تذكّرَ بأنَّهُ انتقى لنفسه البَيضَ الكبيرَ الحجمِ وأرسلَهُ مع ابنهِ إلى البيتِ، وتركَ الحجْمَ الصّغيرَ لَشريكه.

بعدَ قليلٍ تَمتمَ برهوم لشريكه وكأنّهُ ينتفضُ من غفوة: سُبحان الله، النّملُ الذي تسببَ في استمرارِ شراكَتنا عشرينَ سنة، يتسببُ الآن في فضّ هذه الشرّاكة.

الطِّفلُ الذي علّمَ أبويهِ دَرساً

جلسَتْ الجدّةُ مساءً مع أحفَادها الثّلاثـــة، وأخبرَتْهم بأنّها الليلة سَتقصُّ عليهِم قصّةَ الطّفلِ الذي عَلّمَ أبويهِ درساً.

قالُوا بدهشة مُشتركَة: كيفَ يا جدّتي استطاعَ الطّفلُ أنْ يُعلّمَ أبويهِ درساً وهو صغيرٌ؟!

قالت: استطاعَ ذلكَ يا أحفادي بحكمةِ فطرةِ الطّفولةِ النّقيةِ.

قالُوا وماتزالُ الدّهشةُ على سِماتِهم: شوّقتنا لسَماعِها يا جدتي.

قالت: حَسناً يا أحفادي الجميلينَ، ذاتَ ليلة من ليالي الشّتاء الباردة، هطَلَ المطرُ بغزارة من كَبدِ السّماء، واصطَحبَتْهُ عاصفةُ ريحَ شديدةَ، وكانَ رجلٌ عجوزٌ مَعَ زوجتِه يجلسَانِ في بيتِهما الطّينيّ الذي بدأَتْ الرّياحُ تهُزّ أركانَهُ من شدّتها.

قالت العجوزُ لزوجها وقد اكتظّ البيتُ بأزيزِ الرّياحِ: يكادُ البيتُ يسقطُ علينا يا رجل، ماذا سنَفعلُ؟!

حملَ الرجلُ العجوزُ عصاهُ التي يتوكأُ عليها، ثم حَذتْ زوجتُهُ حذوَهُ وهُما ينظران إلى السّقف الذي بدَا على وشَك السُّقوط، وبعدَ هنيهة انسحبَا إلى فناءِ الدّارَ يتمسّكُ أَحدهُما بالآخر، في تَلكَ اللّحظَاتِ بدأ سقفُ البيتِ

ينهارُ وهما ينظران إليه، فابتَعَدا واتّخذا الطريقَ إلى بيتِ ابنهما الوحيدِ الذي لا يبتعدُ كثيراً عن بَيتِهما.

بوصُولهما بابَ البيت طفقا يَطرُقان عليهِ البابَ وقدْ غاصَتْ ثيابُهما بالمَطَرِ، وأَصبحَا كورقتين يَرتجفانِ من البردِ.

انتفَضَ الابنُ مع سماعِ طرقاتِ البابِ الشّديدة، ثم ما لَبِثَتْ أنْ انتفَضَتْ زوجتُهُ بفزعٍ وهي تتمتمُ: مَن يطرقُ علَينا البابَ في هكذا وقتٍ يا رجل؟!

فرّكَ عينيه، ثمّ نهضَ ووضعَ على رأسه غطاءً، وعلى الفورِ ارتدى معطفاً وجرى نحو البابِ يفتُحُهُ، عند ذاك بوغِتَ بأبويهِ العجوزينَ في تلكَ الحَالِ وقدْ نالَ منهما الهلَعُ والبرد.

أدخلَهُما بسرعة واتّجَهَ بهما إلى تلكَ الغرفَةِ الغيرِ مفروشةٍ التي اتّخذتْها المرأةُ لحفظِ مونةِ البيتِ، وبعضِ الحاجاتِ.

قالَ أبوهُ وهو يرتَجفُ: يا بني ما كُنّا لنقدْمَ إليكَ في وقتٍ متأخّرٍ كهذا لولا أنّ بيتَنَا سقطَ، وقدْ أنجانَا اللهُ.

قالتْ أمُّهُ: لجأنَا إليكَ يا بني ريثَما يجعلُ اللهُ لنا فَرجاً.

هزّ الابنُ رأسهُ دُونَ أنْ ينبسَ ببنتِ شفة، وتركَهُما عائداً إلى زوجتِهِ، عندَها تفاجَأَ باستيقاظِ ابنهِ البالغِ ستَ سنواتٍ.

انحنى إليهِ وقبّلهُ فقال الطّفل: مَن أتانَا يا أبي؟

قال: جدّكَ وجدّتُك يا بني.

قال: تلكَ الغُرفةُ باردةٌ عليهما يا أبي، لا مدفأةَ فيها، اجلبْهُما إلى غرفَتنِا كيْ ينَامَا هُنا.

قال: لا يَا بنيّ، هذه الغرفَةُ تسعُنَا بالكاد، ثمّ وجّهَ الكلامَ إلى زوجَتِه قائلاً: يا امرأة احضرِيَ فرشتينْ كي أحمِلُهُماَ إلى تلكَ الغرفة.

عندئذٍ قال الطفلُ: لا يا أبي، فرشةٌ واحدةٌ تكفيهما!

قال الأبُ: لِمَ يا بنيّ؟!

قال الابنُ: اتركْ فرشةً لكَ ولأمّي، حتّى أحمِلَها إليكُما عندما يتعرّضُ بيتُكما هذا للسقوطِ وتلجآنِ إليّ في بيتـــــي.

المحتويات

القسم الأول

رجلان.. وكلب 05
مأدبة غداء 10
الشيخ تراب 16
المقعد 19

القسم الثاني

شفق خيّو 21
عليك أن تتبيّني يا ابنتي 52
مدار اللّسان 66

القسم الثالث

زهور الوفاء 106
رحاب الطفولة 109
كرة الذهب 112
السلّة 116
الصّوت 118
النَمل 120
الطّفل الذي علّم أبويه درساً 125

دار الكافي
للنشر والتوزيع والترجمة